دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الثاني

الخلافة الأموية والدولة العامرية

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

دولة الإسلام في الأندلس

الخلافة الأموية والدولة العامرية

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٩٧٨٥١

الكتاب الثاني

الدّولة الأمويّة في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر
وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ – ٣٥٠ هـ – ٩١٢ – ٩٦١ م

الفصل الأول

ولاية عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه فى معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون فى ريه والبيرة . سحق الثورة فى إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولى العهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبلة . ابن حفصون يطلب الصلح ويجاب إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربى فى تصوير شخصيته . أبناؤه يخلفونه فى معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرخنتا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بنى الجليقى . إخضاع بنى ذى النون . تمزيق الثوار فى شرقى الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى فى أراضى المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتيبن وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مط نية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتيبن . توغله فى أراضى نافار . موقعة جونكيرا وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتكهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليطلة . محاولة راميرو إنجادها . سقوطها فى يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبة والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجى . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بنى هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى . سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقالبة فى القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودى . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرطبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطىء المغرب . أثر الدعوة الفاطمية فى بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة منتحليها . كتاب الناصر فى شأنها .

— ١ —

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاض والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرّف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فلنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه فى بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه ؛ وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه(١)

---

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة فى أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان : Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29—30

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول فى قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم واراه فى مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة فى المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حُدير ، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبى زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال فى سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحى[1]. وساد البشر يوم البيعة فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفى ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً ... والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى ... ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر ... فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه ... تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى ... لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس ... يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

---

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأي الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذي النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش ، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولا إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك في شهر ربيع الآخر[1]. وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى في الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولا إلى الجنوب الشرقي ، ومعه جند كورة إلبيرة وزعماؤها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مَرْتُش الواقع في طريق جيان ، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون (حصن المنتلون) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المنتلون .

---

(١) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . وأستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف. وافتتح سائر الحصون التى كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وطهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فتقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريُّه ، فاحتل منها سائر الحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمنع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفر أمامه جعفر ابن حفصون ليلا ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتبين على مقربة من إلبيرة . واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج (سيرًّا نڤادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول فى تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه فى تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها فى يوم عيد الأضحى بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر[1] .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيليه فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبدالله ، بنو حجاج حسبما تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربى ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التى

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ — ٣٨ .

لم تدخر وسعاً فى الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيليه إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه فى حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه فى حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣٠١هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بنى حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فتقلبها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين فى إشبيلية .

وفى شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤م) خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرّش » فى شرقى مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ؛ وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرّش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٣٠١ (يونيه ٩١٤ م) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شلونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، فمنح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت فى طاعته سائر المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ثم عاد إلى قرطبة فى شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة فى تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح(١) :

وفى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد فى البلاط القرطبى ، هو مولد ولى العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف فى تاريخ مولده ، فيقول الرازى إنه وقع فى يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع فى يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثيرة ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أيما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهانيهم ، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر ... تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيا المكارم والعــلى ... فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خـــلايف ... أكفهم بحر ونايلهم غمـــر
بدا لصـــلاة الظهر نجم مكارم ... تحف به العليا ويكنفه الفخـــر
نماه إلى العليـــاء خير خليفـــة ... تتيه به الدنيا ويزهى به العصر(٢)

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر(٣) ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة ، وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة ٣٢ أ ، و Dozy : Hist.; Vol. II. p. 103

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣

لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة ، والفت فى عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة فى حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التى شبهت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء فى الناس ، فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله فى هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعففين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بدر بن أحمد ، مدبر دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله فى شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مساربهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مر بهم من رفاق المسلمين ، وطالبى المعيشة ، وجالبى الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان فى هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمايهم وخيارهم »[1] .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشى إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار فى مدينة الحامة . وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

---

(١) السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٥ أ

فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ، ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد فى مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم فى الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ، ونظر فى مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه فى فتح مدينة لبلة وفى مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسـول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سـوابغها كما استتم الهـلال فى كمله
وجـه ربيع أتاك باكـره يرفـل فى حليه وفى حـلله
وأقبل العيـد لاهياً جـذلا يختال فى لهوه وفى جـذله
نصر من الله تضمنـه ينهـض فى ريثه وفى عجـله
يجرى بشأو الأمام منصلتـا يسبق حضر الجياد فى مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طلله(١)

وفى هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلى هام ، هو جنوح عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه فى إيواء الأمير محمد والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة فى ذلك يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ، فبذل فى سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ؛ واتصل يحيى فى ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا ابن عطاف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول فى كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ، ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولا رضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه إنشاء الله ، والله المستعان » .

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصـــون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانهيار[1].

وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدراً فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)[2].

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م)[3]

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها فى غربى الأندلس، توفى بعد مرض طويل ، فى الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الأسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصرانى ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكى يذكى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازى : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصى الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث فى الخلق ، والفساد فى الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكه فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة »[1] .

وقد بالغت التواريخ النصرانية فى تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهى تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان فى مناوأته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة ، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه فى تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا فى نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلا أكثر نبلا ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »[1]. ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسبانى الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه « كان بطلا خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »[2] . أما نحن فنرى فى مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى مايسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبه أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام فى إجرام ، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هى «أرخنتا» ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله[3]. فقام سليمان فى أبّده ، وقام جعفر مكان أبيه فى ببشتر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده فى حياته ، وأخذ له البيعة فى

---

(١) راجع : J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid : 1897) p. 516 .

(٢) Dozy : Histoire ; V. II. p. 106

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

أواخر أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصبة ، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر إخوته ، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له ، قال الرازى : « وكان جعفر فى ذاته متهوراً سخيفاً ، جباناً ضعيف السيا ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كنوداً لمن استرسل إليه ، موالفاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاف حاجبيه ، فإنهم سعوا فى الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده بعده »[١] .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمتها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ، وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طُرُش ، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها ، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر فى ببشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى[٢] . فقام أخوه سليمان مكانه فى ببشتر ، وأقره عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist., Vol. II. p. 108 .

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُّش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت فى حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التى يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بُبَشْتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد فى محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية .

وفى سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بأبى نصر ، وكان من أحذق الرماة فى عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحذق فى الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجىء به إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام ، فرفع فوق جذع فى مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهام حتى مزق بدنه ، وترك داميا فوق جذعه ، ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت(١) .

وفى أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر ، وخرج سليمان فى قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه فى ببشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفى ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولى عهده الحكم ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفى العام التالى سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة فى منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبى عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها فى العشرين من المحرم ، ودخلها وجال فى أرجائها ، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى فى مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون فى أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذى كان يعتنقه . فأمر الناصر بنبش قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملقى على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلا المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ، إلى قرطبة ، حيث علقت فى أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى فى تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازى فى صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمرأى العـــين مجســـماً ... وقام من الأجداث خلقاً متمما
فما كان إلا مثـــل من نام نومة ... فأنبه عنها حين أغفى وهـــوّما

ثوى فى الثرى حتى إذا صار رمة أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق يحاول منه بالنجوم تحوما
تبارك من أبداه للخلق سامغاً وبوأ منه النفس قعر جهنما[١]

وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر الكنائس والأديار ، التى ابتناها الثائر فى تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة[٢] . ثم أمر بعد ذلك بالقبض على « أرخنتا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت فى سنة ٩٣١ م ، أو فى سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[٣] :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلا ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده ، ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول فى خطابه ما يأتى :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ، ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدى عنهم ، فنهض إلى ذلك وقصد له ، فلما صار بمدينة طلجير ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ، فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذى سبا إلى جوانب شتى ، فقصد كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طماعيته ، ولحق بمداين الطاعة ، فصاروا فى غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير القواد ،

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً لحكم من أبناء عمر بن حفصون إلا فى هذه المناسبة ، وفى رواية ابن حيان ، وفى الأوراق المخطوطة (ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه المعارك فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) Dozy: Hist., Vol. II, p. 109 وكذلك R.M. Pidal: Origines del Espanol, p. 420

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خواراً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ، يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ، وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه ، فخرج آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر الخلاف ، ومعدن الغواية ، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها ، وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل » .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال جدرانها ، وهدم كل قايم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادتها جبلا أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ، وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذى جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره ، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ، وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك فى جامع موضعك ، ليحمدوا الله عزوجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ، ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلثماية » .

ويقول لنا الرازى ، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر ، وأمر بهدمها ، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب ، التى أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها ، فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث ببشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون ، لأنه كان ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذى دعى فيه للخنزير الضال ، ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة »(١) .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤ ، ٩٥ و ٩٦ .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ،عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى. وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ،وخبت عزائم أهلها واضطرت فى النهاية إلى التسليم والإذعان. وسار لبّ مع الأمير بقواته إلى الغزو فى أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلا من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الجليقى مايزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . ففى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الجليقى صاحب بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة .

وفى ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول فى طاعته ، والتخلى عن العصيان ، وفى مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الجليقى . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس فى أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ؛ فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشى فى قوة كثيفة ، فشدد فى حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الجليقى إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس فى سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول فى الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، فنحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة فى منتصف جمادى لآخر سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر فى مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبى ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر فى هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر فى منتصف رجب(١). وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية ، وذلك فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما نفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة فى شرقى الأندلس ، واستولى على معاقلهم ومزق شملهم . وفى سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بنى ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصد إلى معقلهم شنت بَرِيّة واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة أخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم ، وولى عليها عاملا للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين(٢) . وفى سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبى جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مذى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درّى بن

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة فى حصن « شنت مريّة » من حصونه ، حتى ينظم شئونه ويسير فى أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه(١) . وهكذا أخمدت الثورة فى سائر النواحى ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت فى عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقى المتربص بها ، ونعنى إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت إسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قدماً فى سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث فى أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة ناڤار (نبرّه أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم فى تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث فى تلك المنطقة ، وفتك بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبدالرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى (أرذون) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولا نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابُرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ ﻫ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمدافعة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفنى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة ، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يبابا ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروع والفزع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الجليقى[1] . وفى سنة ٣٠٣ ﻫ (٩١٥ م) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

---

(١) ابن حيان عن الرازى — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥١ أ و ب

فعبر نهر التاجُه ، واشترك فى إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد نهك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش (ألانية) ، الواقعة جنوبى ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا فى عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا فى النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو فى اليوم التالى إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلا من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله فى تلك المنطقة ، وقتل وسبى كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض[1] .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الجليقى ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقى ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه ؛ وابتنى لهم الجليقى أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى[2] .

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ و ب وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) المقتبس — السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التى غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى جيش قوى ، غازياً إلى أراضى مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وعاث فى أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة[1] . وفى العام التالى أراد أردونيو الثانى الانتقام لهزائمه ، فعاث فى منطقة طلبيرة[2] ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبدة ثانية إلى أرض النصارى فى جيش ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود) خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضى قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتيبن الواقعة على نهر التاجُه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش[3] ، وهى من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم نازلوها بشدة ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسللت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبى عبدة فضل الموت على الارتداد ، فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) وهى بالإسبانية **Talavera** ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

(٣) **San Esteban** أو **Castro Moros**

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى ، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية[١] . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة[٢] ، بقتلاهم وأشلائهم[٣].

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى. ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو (شانجُه) ملك نافار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية فى منطقة الثغر الأعلى ، وذلك فى ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتيبن قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا فى أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلتيرة[٤] وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحركه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه فى الانتقام منهم بمن الله تعالى »[٥] . وكان عبد الرحمن فى الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة فى شنت اشتيبن ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه فى جدران شنت إشتيبن ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر فى جيشه الضخم من قرطبة فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يوليه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

---

(١) هذا قول ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) هى بالإسبانية **Atienza**

Dozy : Hist, Vol. II. p. 117 (٣)

(٤) ناجرة هى بالإسبانية **Najera** ، وبلتيرة هى **Valterra** ، وكلتاهما تقع فى أحواز تطيلة .

(٥) السفر الخامس من المقتبس — لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبته ؛ ولكن المسلمين هاجموهم فى مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلا وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك فى الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ١٩١٨ م)[1] .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت فى عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالا بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبى فى مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة فى الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيه ٩٢٠ م) فى جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضى الثغر الأوسط من طليطلة شمالا ، حتى مدينة الفرج أو وادى الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها فى الرابع والعشرين من المحرم . وفى ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى ، وعينه والياً لوادى الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبة والقلاع (قشتالة) ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتبين (قاشترو مورش) ، وهى التى كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخربها ، وغنم ما فيها . وخرب فى تلك المنطقة كثيراً من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيها وخرب قلاعها ، وهدم قلونية وخرب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو (شانجه) ملك ناڤار قد حشدا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا فى الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة[1] التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ، فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرّة وكان به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيدو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحى وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع منيعة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ، فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط . وهنالك عسكر بجيشه فى مكان يسمى «خونكيرا» **Junquera** على مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حمى الجبال ، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى ، وقد كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة على قول آخر ، إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

---

(١) وهى بالإسبانية **Carcar** وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم ، ويهدم الديار ويقطع الأشجار: وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هـــذه الوقيعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يوليه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود ناڤار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ (أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأوه ، وتوطدت سمعته(١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه : فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجتراء . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٧١ ب – ٧٤ أ و ب ، و الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩ ، وكذلك Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II. p. 386 .

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى فى جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبته (ربيع سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م) ، فقصد إلى تطيلة وجازمنها إلى أراضى نبرّة (ناڤار) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه فى عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبته ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة فى السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) فى قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لجناية بقيرة ، وترك فى القصر إبنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل فى طريقه مدينة لورقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبى خالد التوزرى وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى فى قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر فى شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم ، وهم فى جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضى ناڤار فى أوائل ربيع الآخر (يوليه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرّة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالته (بيرالتا)[1] الواقعة شمال شرقى قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالحش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) فى وادى أراجون شرقى بيرالته ، وشمال شرقى تطيلة ، وهدم سائر القلاع فى تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب ناڤار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال ، فكان يرد فى كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

---

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة ألبة » .

عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو فى جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين فى مناوز نافار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتيبن ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى فى كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع نافار وسحق قواتها (ربيع الثانى ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة . وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرّة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها فى اليوم السابع والعشرين من ربيع الثانى ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بنى ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلا بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً فى ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ؛ وقد أنفق فى غزوته أربعة أشهر ، وهى تعرف فى الرواية الإسلامية « بغزوة بنبلونة »[1] .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثانى ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه فى الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفى ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو. ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثانى ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن فى تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٨٠ — ٨٣ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ — ٢٠١ ؛ وكذلك Dozy : Hist, V. II. p. 144—145 .

فصلنا فى موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى :

وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى فى غيهم ، فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر(١) بالسير إلى طليطلة فى قوات ضخمة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة ٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين فى صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيه سنة ٩٣٢ م) معتزماً فى هذه المرة أن ينزل بها الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة لنداء أهلها ، فسار لإنجادها فى بعض قواته ، واستولى فى طريقه على حصن مجريط(٢). ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ، فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل فى المقاومة ، وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا فى النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعتها وكثافة أسوارها ، وأمر بهدم حصونها ، وفقدت الثورة فى الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها .

وفى العام التالى ، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة أوسمة (وخشمة) التى كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت أوسمة ، وهى تقع شرقى شنت إشتبين على مقربة من دويرة ، وعلى خط الحصون الفاصل بين الأراضى الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

---

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر منثنارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدى دورها الدفاعى حتى سقطت أخيراً فى يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م)، فى جيش كثيف حسن الأهبة، وكانت قواته فى هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة، التى كان أول من استعملها، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم، واستخلف فى القصر ولده عبيد الله. وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرج أو وادى الحجارة، وذلك لكى يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة، من أعراض الخلاف، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه، فتحول نحو أراضيه مما يلى غرب الثغر الأعلى، واحتل حصن ماومده من حصونه، بعد أن بادر أهله بالطاعة، ثم تقدم إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة، وكان به أخوه يحيى بن هاشم، وافتتحه قسراً. ثم سار إلى سرقسطة، وطوقها ببعض قواته، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة. ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى، وكان أقربها إليه أراضى نبرّة (نافار). وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) إبنة شنير ملكة نافار، التى قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافار وصية على ولدها غرسية، ترجو عقد الصداقة، والسلم. فرحب الناصر بطلبها، ووفدت عليه فى وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها، وهو بمحلة قلهرّة، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة، العظيمة الأهبة، وأكرم منزلتها، وتعهدت لديه بالطاعة، والابتعاد عن محالفة أى ملك أو أمير نصرانى، وكف الأذى عن المسلمين، ومعاونة قواد الثغر الأعلى فى محاربة كل من خرج على الطاعة، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين فى اعتقالها. وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية، ملكاً على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس)، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسى الفاخرة، وفى وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

وقيدت زعيمتهم إليه ... كبلقيس تحف به الجنود
تلفت لا ترى إلا شهاباً ... به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجه ... له رحب التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً ... وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يسوسنا ما دام شبه له فى الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبة ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك فى مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون فى طريقهم كل شىء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة . ثم نزل على قلونية فى شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقى براميرو ملك ليون فى موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين فى معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضى مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو فى قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى فى معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك فى السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث فى أراضى قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع فى غزوته هذه زهاء أربعة أشهر . وذكر الناصر فى كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التى غزاها من بلاد ألبة والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعة وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم فى تهنئة الناصر بما أصابه فى هذه الغزوة من الظفر[١] .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر فى تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبدالملك ابن سعيد بن أبى حمامة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الحرافات التى تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية فى شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولا إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطىء الثغر الفرنجى ، وقصد أولا إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحدق بها المسلمون براً وبحراً وأحرقوا المراكب فى مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حمامة من سفنه خمسة عشر سارت شمالا إلى بلدة مسّنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطىء ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجى ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبى ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطىء معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامى بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامى ، مثقلا بالسبى والغنائم ، وهنالك تلقى قائده أبا حمامة كتاب الناصر ، بالنهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسى العدوة حتى شتاء العام التالى ، ثم عاد إلى مراسيه فى ألمرية فى صفر سنة ٣٢٤ هـ[٢] .

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ – ١٣٥ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. • Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفى هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التى قام بها المسلمون فى أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر فى التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع فى ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة فى منتصف ربيع الثانى من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، فى يوم مشهود . وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلا ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة فى النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة[1] .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر فى الثغر الأعلى ، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نبرّة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التى عقدتها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت فى الوقت نفسه فى الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بنى هاشم التجيبيين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التى يتبعها الناصر فى إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم فى الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، حينما توفى فى سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك فى الغزو مع الناصر ، وتوفى فى سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته فى رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسما من الجباية . ولما سار الناصر فى سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، فى رجالهم ، وتخلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم(1) . ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرّف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب(2) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه فى الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان الناصر يغزو أراضى ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته فى خيانته ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة ناڤار ، وغزا البشكنس الأراضى الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت فى ذلك الوقت فى الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج فى برشلونة وحلفاءهم فى الثغر ،حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضى الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة فى الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر إبرُه ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة فى آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م)(3) .

وبعث الناصر فى نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، وليدعم

---

(١) العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) Calatayud وهى تقع جنوب غربى سرقسطة فى منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

(٣) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي ، ليقوم بالمعاونة فى التضييق على سرقسطة .

وفى نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبى عمر بن أبى عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة[1] .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففى منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفى ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس ‏ ‏ ‏ يختال فى عقوتيه الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى فى الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، يحاولون فى نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفى خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة فى مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه فى منطقة طليطلة بقيادة مولاه درّى ، للسهر على النظام فى تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرّف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شوريب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبة والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعوه إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

---

(١) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر فى فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل فى المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو فى التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير فى ثورة بنى تجيب ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء فى تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألقت إليك الرعايا بالمقاليد

ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة فى أرض النصارى . فاتجه إلى أراضى ألبة والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرّة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرّة فى طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك فى أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م)[١].

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها فى الثانى عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس .
فسار أمية إلى مدينة شنترين[١] فى ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها
علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ،
وكان مقيما فى بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ،
فسار إلى أراضى ليون واشتبك مع الجلالقه فى معركة ، هزم فيها الجلالقة ،
وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ،
ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم فى قواته إلى أحمد
ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون . فصدعا بالأمر ، ووصلا
بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا فى جنباتها ، وفى نفس الوقت تحركت بعض
السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين
يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين
يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية
إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ،
وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر
بإعدامه[٢] ، ولكن سنرى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد .

واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً
فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله فى طلب الأمان والصلح ،
على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج
إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ،
ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة .
وهنا ثابت للناصر فكرة فى انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة
من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم
جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سُقط فى يده ،
وشعر بوقع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً
ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

---

(١) وهى بالإفرنجية Santarem .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبى عبدة ، فاطمأن الثائر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقد له الأمان بأوثق عقد ، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته فى الناس عامة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفمبر ٩٣٧ م) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التى يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذى يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين فى أنفسهم ، ولا مأخوذين بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلا على الموضع الذى يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويخلف عليهم . وعلى المُولَّى بسرقسطة بعده ، إحسان صحبتهم ، وعليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شىء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التى يضربها الناصر لمحمد ، توجه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر فى أقطار الأرض من معصيته ، وهو فى توجهه إليه آمن فى طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التى وضعت له . وله على السلطان إذا وفى بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدَّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملا وقايداً ، ويعزل عنها عامله وقايده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التى كان عليها قبل هفوته » .

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان فى المسير والمقام ، يديلهم ستة أشهر ، باكفائهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين فى ظاهره وباطنه ، من حدّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين فى عقده ، مثل ما سأله محمد فى ذلك وأوجبه على نفسه مع دركه لهذه المنن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع فى سجله معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يؤاخذه بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء فى خالدات عهودهم إن شاء الله ، ووقعت الأيمان فى هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف فى مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضى الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته » . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر[1].

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها فى يد الناصر ، وكذلك سقط فى يده حصن روطة أمنع حصونها فى الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبيين فى الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التى واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصارى . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبنى هاشم فى الشمال من مركز قوى موثل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر فى غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم فى جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر فى مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبى لتقوم ببعض الغزوات فى أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه فى أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصدع بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتيبن ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات فى قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتيبن ، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى . وتوغل المسلمون بعد ذلك فى أراضى ألبة ، وانتسفوا الزروع

---

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذى أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالى والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس فى السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخربوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر فى شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحماة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلا إلى الحضرة فى الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) . وذلك بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثمانية أشهر(١) .

ووفد محمد بن هاشم التجيبى بعد ذلك على قرطبة ؛ فأكرم الناصر وفادته ، وأقام فى كنفه مدة فى رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة فى رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة فى نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون ؛ فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها ، أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجُه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك (سيمانقة) دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثانى يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

---

(١) المقتبس فى السفر الخامس — لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدها ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها فى غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنويهاً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة فى سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الإسم الذى تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها[1] . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولا ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية ، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الموقعة التى تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسى .

ويقدم إلينا المسعودى عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة عاصمتها ، وكانت فى غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) . وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[2] .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، فى شرح تفاصيل هذه

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة إشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى فى البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح فى تحديد مكان الموقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهى التى ينقلها فى المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جلّيقية (مملكة ليون) ، جد فى الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ ﻫ الموافق لأول شهر يونيه العجمى (سنة ٩٢٩ م) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر فى قواته إلى طليطلة فى يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) فى الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألفى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوات ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخربوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلة ، فحصن برتيل ، وذلك فى يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة قد تقدم فى قواته ، فى الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش (سيمانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا فى تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذى تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فلكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل فى الجيش . وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الوقيعة التى اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ؛ وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان : إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبو سعد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ؛ وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فثقف وحمل إلى قرطبة ، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذى سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادى الحجارة) ، ثم غادرها فى يوم الخميس الحادى عشر من ذى العقدة ، وسار إلى جربيرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادى أربيشر ، ومنها إلى طير برتيطة ، ومها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهنالك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة فى الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السُّدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذى صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذى نشب بين المسلمين والنصارى ؛ ويستخلص منه أن المعركة بدأت فى صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا فى البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبى

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطرمت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره ، وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه ؛ وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بحذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتبين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأثقال ؛ فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها ؛ فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله . عند مقارعة الرجال . وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ؛ حتى أسهلوا . وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ؛ وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق . وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف . ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ؛ وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى فى التقبل لقوله وفعله » .

وقد أرخ هذا الكتاب فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعنى عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر فى ارتداده إلى وادى الحجارة ، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن هذه العبارات الرفيقة التى صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ، ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التى تشهد كلها بفداحه النكبة التى نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتى يفصل لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى مدينة شنت مانكش بلد ألبة ، وبارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة انهزم المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله فى رجال الحقيقة بعد أن هلك فى [الموقعة] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسر كثير ، وكان ممن أسر محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة . وذلك فى شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى ، قد لبث فى أسر راميرو (رذمير) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين : والناصر يسعى إلى افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ؛ وحضر إلى قرطبة فى

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره [١] :

وأما رواية ابن الخطيب ، فهى بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقيعة الشهيرة التى ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتى أوقعه بها عدو الله رذمير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش [٢] ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذى تنسب إليه الموقعة (فهى تسمى موقعة الخندق) [٣] . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه [٤].

ولدينا من الرواية النصرانية أولا رواية ألفونسو الحكيم فى تاريخه العام ، وهى رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما فى جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلا فى جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقاتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجى إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » **Alfondiga** وتركوا كثيراً من قتلاهم فى الميدان . وحاصرهم الملك راميرو فى هذا الحصن ، وفر منه

---

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذى صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملا فى نهاية الكتاب .

(٢) شنت مانكش هى بالإسبانية **Simancas** (سيمانقة) . وهى تقع على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية **Alhandega** محرفة عن كلمة « الخندق » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو فى جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً[١] .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون ؛ ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى ، حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شملنقة تسمى ألاندجا (الخندق) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً . فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلبى ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان[٢] . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره[٣] . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة فى قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

---

(١) Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هيأ الله من الصنع ، ولم تناصحه فى الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال » . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد»[1]. بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفى ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته فى غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر فى تقليد شئون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورثّاها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تجيب ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤمرين قديماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنفرة والمطوعة إلى الثغر تعضيداً لجهودهم[2] .

واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفى فى سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه فى الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرّة) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسالمة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جيرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم[١] .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلا ، وعادت بعوثه تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ؛ وفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم[٢] وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

---

(١) المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٧٣ — ١٧٥ .

(٢) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم — القاهرة — ص ٤٦١) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضى ليون فى الأعوام التالية . وفى أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا فى أراضى ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يعلى فى جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حديث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . فنى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث فى سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك فى خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يسئلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح فى المسئلة

فيما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التى توجب سخطه منه ، وتبذل نقمته ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء فى المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التى تليه ، إن أبطأت السقيا ، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتى الله قبل ذلك بغيثه المغنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فرالخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ، ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله»(١) .

وفى سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ، فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس فى سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص فى المحل . وانهمل الغيث فى العام التالى ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن إدريس فى ذلك قصيدة فى مديح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر　　مستنزل الغيث بالأعذار والنذر(٢)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضى الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبى عبد الله بن عيسى فى إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الآخر . ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى الأرض . فعاد القاضى إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ، وبدأ الناس فى الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، واستسقى الناس سقيا وافياً ، ورويت الأراضى والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء(٣) .

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس – لوحة ١٠٢ أ و ب .

(٢) ابن حيان – السفر الخامس – لوحة ١٥٠ أ .

(٣) ابن حيان السفر الخامس – لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية فى سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . فى أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبى هرون ، فاحترق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبى هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة[1] .

— ٣ —

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية ، وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطىء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً . وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب . فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . فى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا فى مراكبهم ، وكان تحت قيادة أميرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدوة ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر أصيلا تحت طاعة الناصر(١) .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطىء العدوة أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حمامة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى ألمرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية(١) فى جنوبى إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية. وفى سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت فى ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهراً فى سنة ٣٤٧ هـ ، فى جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيرى بن مناد فى قواته ، فاجتاح شمالى المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو فى أراضى العدوة بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت فى نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم (٢) .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب فى الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموًا إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملا فيه روًيته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج فى ساحل البحر الرومى . . . مجاورة جبل البرابر الحالّين بلاد المغرب لملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان روًى

---

(١) وهى بالإفرنجية **Calabria** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع **Dozy: Hist., Vol. II.p. 164 & 165**

ركوبه . فمنه طرقت الأندلس فى الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربى من طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضية لضرتها مدينة سبتة فرضة المجاز من بلد العدوة . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً بخاطره من الرهبة ، فأرهف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة من تقدمت له بأسلافه ملوك بنى أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم أصرة ، يستثير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعى ولايتهم ، ويسبب ذلك ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوايجهم ، فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمايهم بين مصحح فى ولايته ، مستجيب لدعوته ، مغتنم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بنى عبيد الله إمام الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ، منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعى صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا مجانهم إليه ، ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفوهم عن الإيغال فى بلدتهم من قاصية المغرب ، يبطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ، فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التى استضمها إليها من أرض العدوة ، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم فى حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادى البربر ، واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس ، فتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ، وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة فى وقته ، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبته ، واجتذبه بوصلته »[١] .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطىء الأندلس ، فى مقدمة البواعث التى حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبدالرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، فى عهد الحكم بن هشام وولده عبدالرحمن الأوسط ، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة . وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين[٢] . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضى أحمد بن أحمد بن بقى بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة[٣] . وإليك نص الوثيقة الرسمية التى صدرت بذلك وهو :

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ ا

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »(١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك فى الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة فى سنة (٣٢٧ هـ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية(٢) .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية فى عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مَسَرَّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير فى شأنها .

---

(١) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة فى حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم فى مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص فى كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ) . وقد اعتمدنا فى نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

وهوأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشنى وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة فى التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)[١] . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة فى بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرائى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرة ، الرابض للفتنة ، دب فى الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع .

« وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقه ، وعلق فى شرك حجاجه ، غره رفقاً بباطله من

(١) ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى فى « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص ٥٨ و ٥٩ . والتكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٥٧٦ و ٩٩١ .

الطاير فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه فى اعتقاده . . . ومحصله فى اتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم فى مذهبه وايمة دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق فى الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثر القول فى شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقايه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... »(1) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفى يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث ماية ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه فى الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف فى المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاظمه ، واستوحش من اجتراء تلك الطايفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

---

(1) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المقتبس) المحفوظ بالخزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

الناصر لدين الله ، فى الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، الذى اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح فى الحديث ، والقول بمكروه فى السلف الصالح ، فشذوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمير المؤمنين ، من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، أغلظ فى الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته[1] .

---

(١) ورد نص هذا الكتاب فى اللوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملا فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرّية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله » .

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرّة وتلاميذه ، وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

الفصل الثانى

خلال الناصر ومآثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء فى إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل فى رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية فى عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضى منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر فى نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابه ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبناؤه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد فى عصر المنصور بن أبى عامر ، ذروة تفوقها السياسى والحربى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت فى عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى المشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزها ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها[1] . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... مُلْك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، فى سفح جبل يسمى جبل العروس[١] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[٢] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[٣] . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريُّه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة أربعة وعشرين سارية[٤] . وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد ولده الحكم[٥] . وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[٦] . وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذى أهدى إليه من قيصر

---

(١) مختصر نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومة) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذى جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض(١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والإناقة والبهاء(٢) .

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً. وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال(٣) . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى(٤) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة(٥) ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبىء عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها[1] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر — فيصف موقعها ، ويقول «إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذال لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع »[2] .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادى الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

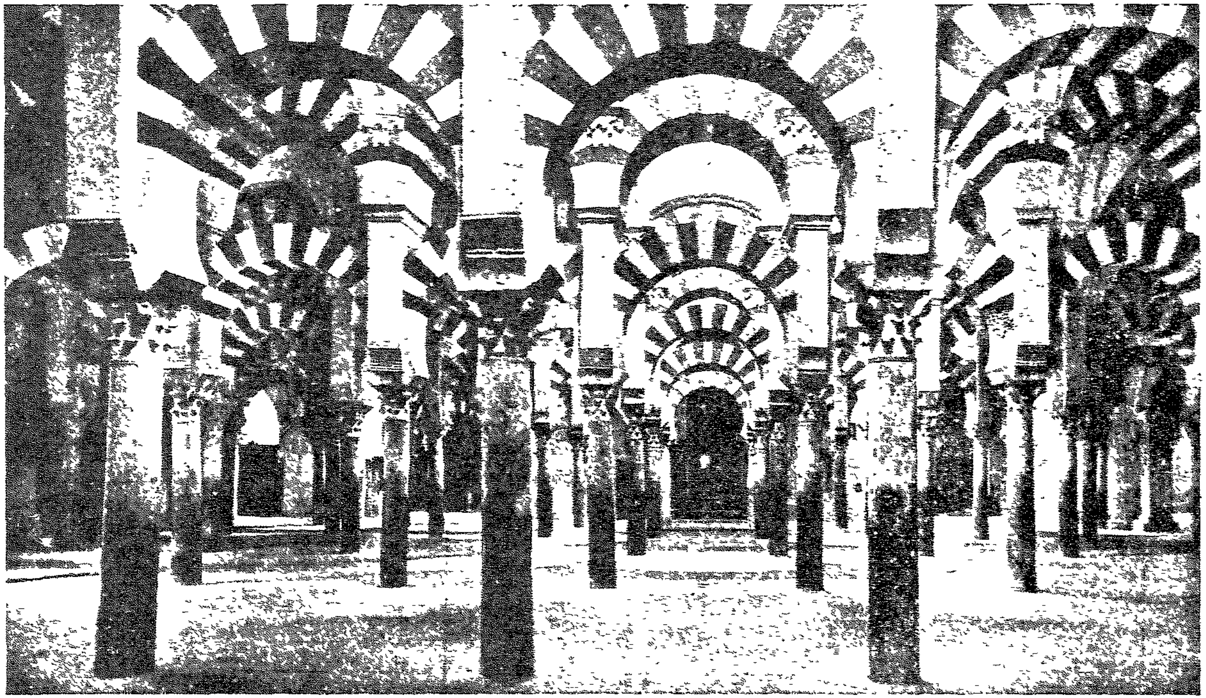
(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها ؛ وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية .

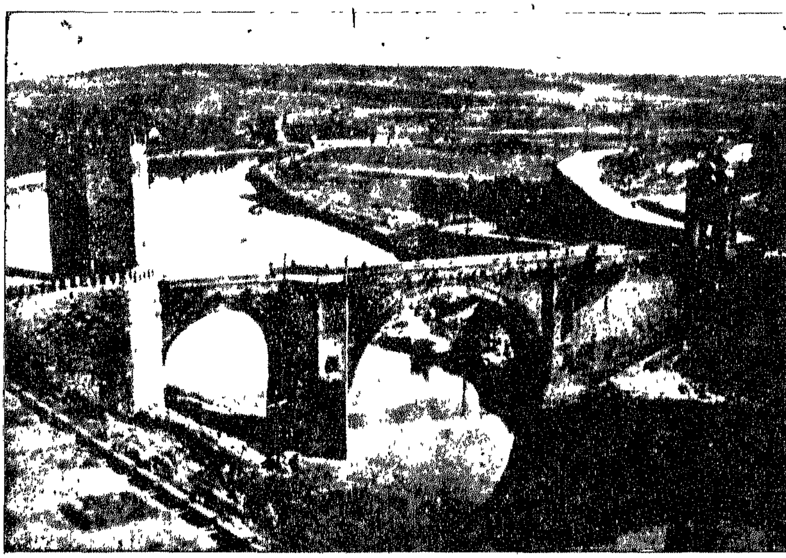
ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحروب الأهلية . ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، وروائع ذكرياتها :

خليلى لا فطر يسرُّ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل ... أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معـــاهد لذات وأوطان صبوة ... أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهـــراء أوبة نازح ... تقضت مبانيها مدامعـــه نزحا
مقاصـــير ملك أشرقت جنباتها ... فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثـــل قرطيها لى الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتيـــاح يذكر الخلد طيبه ... إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

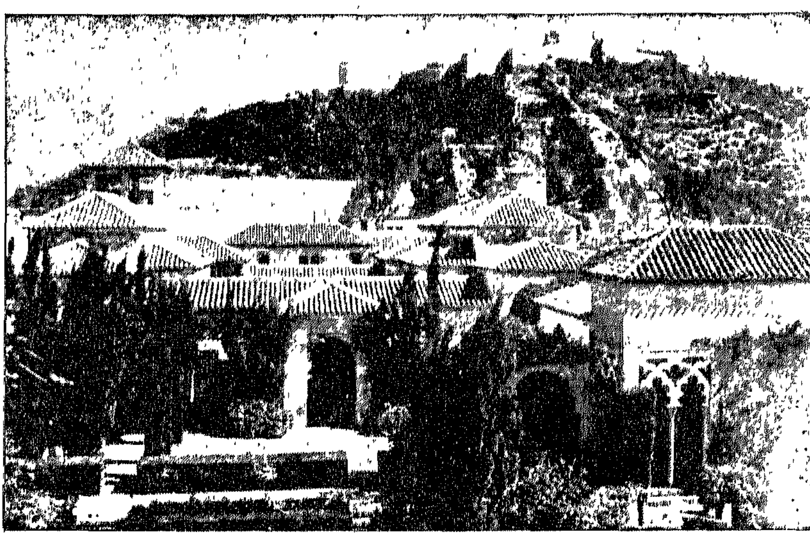
(١١)



قرطبة : المسجد الجامع . الجناح القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وولده هشام سنة ١٧٠ - ١٧٧ هـ (٨٧٦ - ٧٩٣ م)



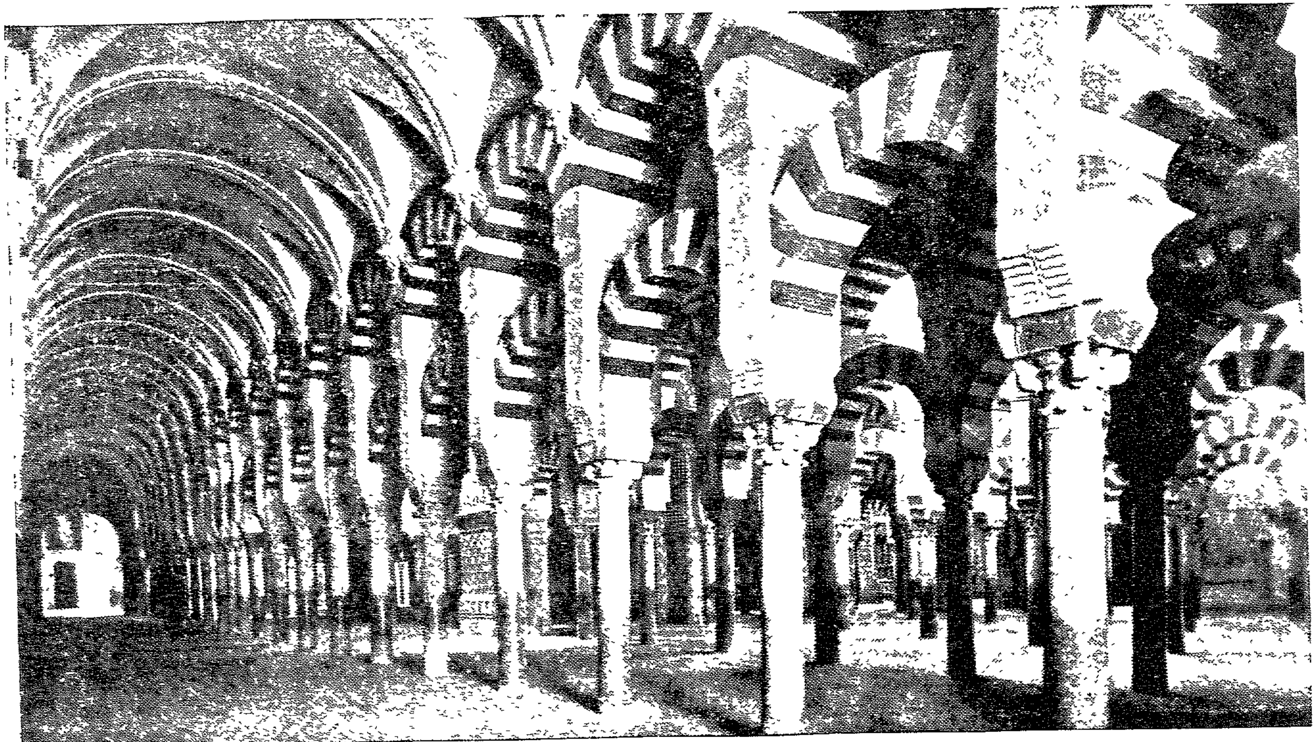
طليطلة : القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » **Alcántara** القائمة فوق نهر التاجه



مالقة : منظر عام لواجهة القصبة الأندلسية وقد ظهر فى أيمنها بهو وعقود يظن أنها من بقايا قصر بنى حمود



مدينة الزهراء : بعض العقود والزخارف التي وجدت بين انقاض المجلس المؤنس بالقصر الخليق وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان بهو عبد الرحمن الناصر أو « بهو السفراء »



قرطبة : المسجد الجامع . الجناح الشرقي المسمى « جامع المنصور » وهو الذي أنشأه المنصور بن أبي عامر شرقي جامع قرطبة الكبير سنة ٣٧٧ – ٨٠هـ
(٩٨٧ – ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

هناك الحمام الزرق تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا[١]

ونقل إلينا الشيخ محيي الدين بن عربي[٢] أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ورثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ... »[٣] .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال[٤] ، وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى

---

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .
(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .
(٣) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .
(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة — ص ١٩٣ .

وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى[1] . وفى شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة فى أيدى الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة فى الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى أيدى الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذى ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول فى تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسى فى أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زياراتنا لعاصمة الخلافة القديمة[2] . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

---

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة فى مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التى مازال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية الزخرفية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة ، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفى والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهى الواقعة أسفل الربوة ، فى بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هى التى يجرى اليوم ضمها وإعادتها تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذى كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذى يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء فى سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم فى وسطه ما اصطلح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخى « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفى وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى بهو داخلى ، زين جانباه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التى وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل ؛

وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهى المجموعة الوحيدة التى وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل فى تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة فى أسفل البناء ، هى أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهى تشمل موقع القصر الخليفى والجدار الشمالى ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الجدار الشمالى إلى عصر الناصر ذاته ، وهى من منشآته فى المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذى بنى فيما بعد فى عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفى ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوى على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربى رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف فى هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقى كان موقع مسكن « للحريم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذى تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأوانى الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها فى متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأواني الخزفية والبللورية المصححة، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفى مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع الفنية .

نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التى كانت تتسم بها المدينة الخلافية ، والتى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة[1] .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بنى أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب فى قمتها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنتان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة[2] ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تتمة لبرنامجهم فى تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التى تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، فى مكانها فى الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى «باب النخيل»[3] وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ،

---

(١) رجعنا فى هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Boscó (Madrid 1912)

Excavaciónes del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martinez de Arizala (Madrid 1945)

Nuevas Excavaciónes en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fac. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية **Puerta de las Palmas.**

ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب»(١) .

— ٢ —

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول فى عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس فى ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠ .

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ[1] . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[2] . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[3] . وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٣١٦هـ ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلا قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل[4] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) ابن حيان — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

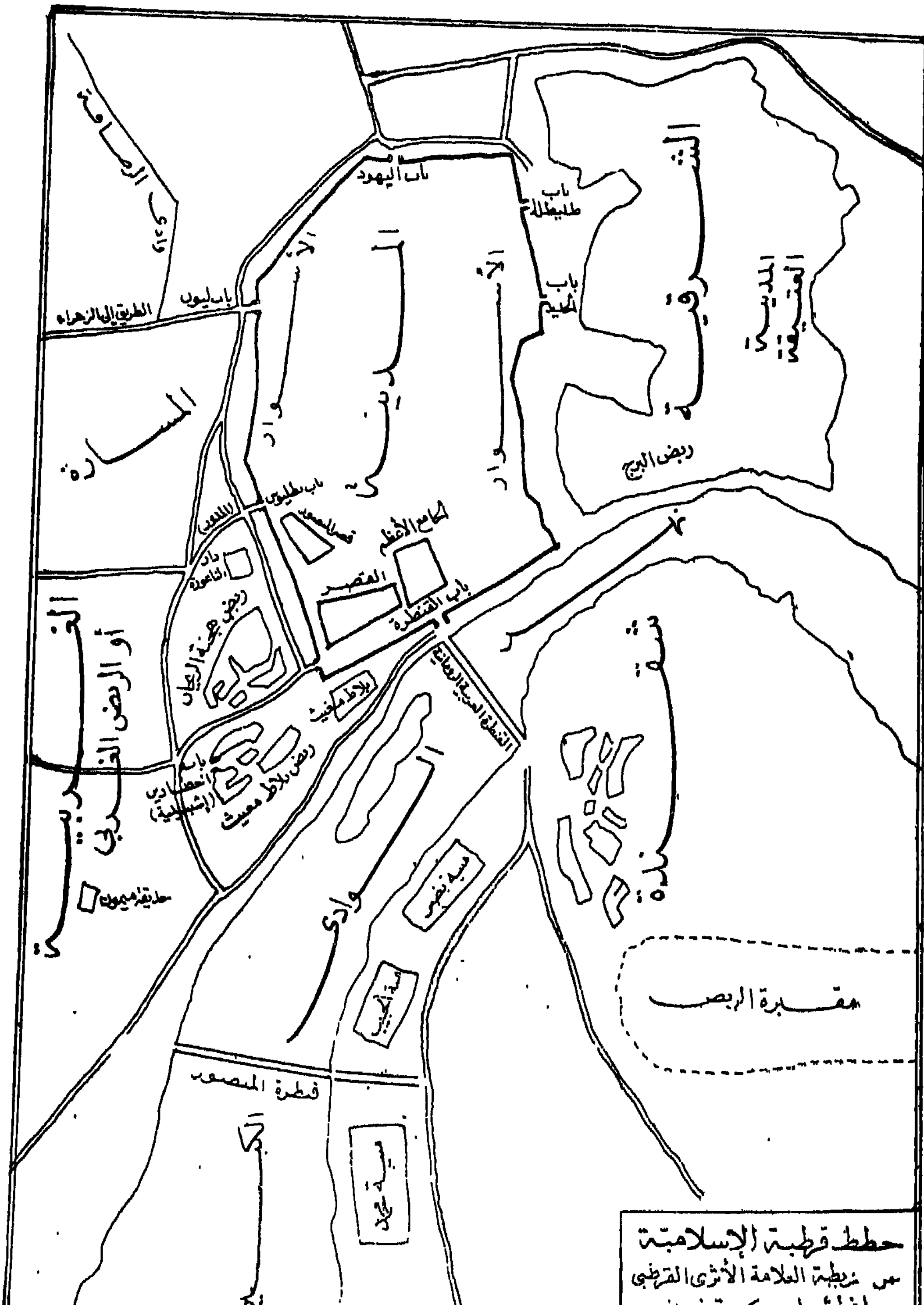
وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طليطلة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموى ستة أبواب : باب السُّدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب الساباط ، وهو فى المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوڤيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ، أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »[١] .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاستزابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم ، من المماليك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، فى الاستزابة بالقبائل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174


باب اليهود
باب طليطلة
باب الحديد
باب ليون
الطريق إلى الزهراء
المدينة العتيقة
ربض البرج
الجامع الأعظم
القصر
باب القنطرة
مقبرة الربض
قنطرة المنصور
حديقة ميمون
خطط قرطبة الإسلامية
عن خريطة العلامة الأثري القرطبي
رافائيل كستيخون

العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فى يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لاينى عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك فى سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلا وبصراً بالأمور ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به[١] .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم[٢] .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين[٣] ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادىء الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم ، فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 158

يومئذ فى القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه[1] . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم[2]. بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص[3]. وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (ألانديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى ، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية[4] .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة ، وعقد العلائق الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها فى ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 158 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 158

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية فى النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية فى القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد فى هذه الحقبة بين شرقى أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام فى الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذى اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها فى عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشد الحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام فى الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، فى مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م)(١) ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «ببورفيروچنتوس»(٢) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية فى هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطىء لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولى العهد الحكم ، فى ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفى اليوم الحادى عشر من

---

(١) هذه هى رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفى رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ (نفح الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطبيب الأندلسى ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت فى سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة – طبعة ميللر — ج ٢ ص ٤٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت فى سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩) . ولم نعثر فى تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

(٢) ومعناها الأرجوانى .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس فى بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالا ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جُلجل» الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس[1] عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس)[2] مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين[3]. وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : « قسطنطين ورومانين

---

(١) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيمائى يونانى . أصله من كليكية بآسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(٢) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسبانى (قوطى) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة فى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيس أو هرشيوش .

(٣) راجع رواية ابن جلجل مفصلة فى كتاب طبقات الأطباء ، فى ترجمة ابن جلجل (ج ٢ ص ٤٤٧) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم »[١]، وفى سطر آخر صيغة التوجيه : « العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر فى شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن فى قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب فى خطابه إلى « أرمانيوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان فى بلاط قرطبة من يجيدها[٢] . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام فى ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس فى سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة فى نفس المعنى[٣] ، فأثار بذلاقته وثبت

---

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية « أرمانيوس » .

(٢) راجع رواية ابن جلجل المشار إليها فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرى عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد فى ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعاته المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة . ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلى . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشىء من الوصف والتحليل .

جاء فى الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ —

جنانه ، أيما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد فى وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل — فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتمى جمراته — كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى — ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها — كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن — لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه — وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه — مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملا — فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب — إلى درب قسطنطين أو أرض بابل[1]

— ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها » .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملأكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله فى نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(١) وقد نقل إلينا المقرى عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة فى ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسل ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشنى ص ١٧٥ و ١٧٦) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين[1] .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم[2] لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[3] ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع فى طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »[4] ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤هـ الموافقة سنة ٩٥٦م . فنى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر

---

(١) راجع فى أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ – ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع **Aschbach : ibid, B. I. p. 96—100**

(٢) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٣) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألفى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة(١). بيد أنه يبدو من أقوال الروايات الكنسية أن هذه المهمة الجدلية ،لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، فى جنوبى فرنسا وفى ليجوريا وسويسرة ، وعيثها فى تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها(٢) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل فى إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا فى طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ،وأنه سيعتقله أى يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ،وأن يبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير. واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل فى البلاط منصباً هاماً ، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو فى تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات فى الفصل التالى .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان يجيد العربية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة فى احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموى ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها فى غاليس وشمالى إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتتحمل تبعة أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل فى شأنها ، أو تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون(١) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر فى نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعى السائد فى ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين فى ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلى ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلا إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن فى سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد فى كبريائهم ، وتذكى رغبتهم فى الثورة(٢) . وفى ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر فى الحكم المطلق ، وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التى تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

---

(١) Reinaud : Ibid, p. 193

(٢) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك فى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ، فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا[1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى . وفى أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفى تفاصيلها الشائقة ، ما يلقى كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية فى العصور الوسطى .

— ٥ —

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس فى القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، فى الثانى من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب ، إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه فى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل[١] . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »[٢] . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهى ، وجعله على حد قول المؤرخ «شمساً لملكه وبدراً »[٣]. وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب فى القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد فى شهر رجب سنة ٣٠٩هـ ، ولى الناصر مكانه فى الحجابة موسى بن محمد بن حُدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حُدير ، وجَهْور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجّالى . وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد[٤]. وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التى أفاض فى وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلا عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية فى قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر فى سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار فى العام[٥] . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ٦٧٧ نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما .

ابن أبى عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التى تولى زعماؤها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن فى إيثار الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء فى عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطى(١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبتاً طويلا من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى فى عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوس . سعيد بن المنذر القرشى ؛ عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة ؛ جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن محمد بن إلياس .

ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن : إسماعيل بن بدر بن اسماعيل العارض .

ومن الموالى : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبى عبده . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختى . مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبى عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبى عبده ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبت عن ابن حيان أورده فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبتاً طويلا بأسماء عمال الكور فى عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحة ١٥٣ أ) . ولكننا لم نجد محلا لإيراده .

وذكر لنا ابن حيان ، فى حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء فى هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشي المرواني . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيي بن إسحق .

وذكر لنا فى حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيي بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى ، وأن الوزراء بلغ عددهم فى هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيي بن إسحق(١) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان فى مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه فى مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢هـ ، فى أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين(٢) . ومن شعره فى وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإسلام منهاجا ... والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها ... كأنها ألبست وشياً وديباجا
ياابن الخلائف إن المزن لوعلمت ... نداك ما كان منها الماء ثجّاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به ... ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته ... وذلت الخيل إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية ... تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت فى قبة الإسلام بارقة ... أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به ... كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسرى فى كواكبه ... عرمرماً كسواد الليل رجراجا

(١) وردت الفقرة الأولى فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية فى لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة فى كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها فى رأسك التاجا[1]

ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن إنما الشأن فى سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير[2]

وكان الناصر سمحاً وافر الجود : ويصفه ابن الأثير بأنه كان « أبيض ، أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين[3] » وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .

وقال الوزير جعفر بن عثمان المصحفى فى رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها لجائرة مشتطة فى احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل لهن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاعها من الناس إلا ميت بفطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرهما المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها ، والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه فى أسمى الأمور » إن ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذى استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ، ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[4].

---

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد الثوار فى مستهل حكمه .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

الفصل الثالث

غزوات المسـلمين

فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامى عقب بلاط الشهداء . استئناف الغزو فى عهد هشام . غزو الفرنج لشمال الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطىء فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروڤانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كامارايج . اضطراب الأحوال فى جنوبى فرنسا . غزو المسلمين لشواطىء سان تروپيه . معاقلهم فى تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سنى . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول پيمون . عودهم إلى غزو بروڤانس . غزوهم لمرسيليا وإيكس . خلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة ڤاليه وساڤوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لثغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروڤانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم فى بيمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية فى جنوبى أوربا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة فى دوفينه وبروڤانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية فى الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطىء فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب فى تقدم الزراعة فى الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والغراس . أثرهم فى تحسين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب فى غاليس (جنوبى فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب فى موقعة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم فى غاليس ، وكيف فقدوا تباعاً قواعدهم فى لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم فى سبتمانيا ، فى يد الفرنج فى سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م)[1] .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة ، وأن يعيد

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ١٣٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتى ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير فى الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذى حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بمؤازرة الزعماء الخوارج فى الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرها عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج فى عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه فى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ — ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفى عهد عبدالرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية ؛ وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسيرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبى ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطىء فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة[1]. سنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ، وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . ففى سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجى الذى بعثه ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبى . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطىء كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطىء فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيثها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا فى الجرأة إلى حد التجول فى مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطىء فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار[1] .

وفى سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسى من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه پروڤانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبى . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفى سنة ٨٥٠م فى أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتمانيا وأثخن فى نواحيها ، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

---

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، فى موسوعة **Bouquet** التى سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها فى كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمى ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى فى ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلى ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفى سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وإفريقية ، حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ، ورغبة فى استعمارها والاستقرار فيها : وكانت أحوال غاليس (جنوبى فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وپروڤانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . فى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، فى خليج جريمو أو خليج سان تروپيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا فى ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فراكسنتم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة فى سفح جبال الألب(١). وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان : ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدهم ، اخذوا فى الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

---

(١) Reinand : Invasions des Sarrazins en France. p. 160

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الذعر والروع فى جنوب پروڤانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين »(١) .

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار المسلمين لجنوبى فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالا . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها : فانتهز المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوڤاليس الشهير الواقع فى وادى «سيس» على حدود پييمون ، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم ؛ واشتد بأس المسلمين فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول پييمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفى سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين فى شاطىء پروڤانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودى ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال ؛ وانتشر المسلمون بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور .

---

(١) Reinaud : ibid, p. 161

— ٣ —

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة فى سبيل التقدم إلى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم إلى پييمون ومونفراتو. وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوة . ويروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفى هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال ساڤوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » فى شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة فى شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء فى جهة نيو شاتل .

وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس .

ولما اشتدت وطأة المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروڤانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذى يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفى سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطى فى مياه سان تروبيه ، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه فى انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم فى جنوبى پروڤانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال فى نيس إلى اليوم حى يعرف بحى العرب **Canton des Sarrazins**

وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب «جريزيڤودان» الذى يجرى فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم (1) .

— ٣ —

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادى فى پروڤانس وساڤوا وپييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرة ولاية ڤاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى إيطاليا الشمالية ، ولاية

---

(1) Reinaud : ibid , p. 180 & 181

ليجوريا : وكانت معاقلهم فى پروفانس ولا سيما حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول پييمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللونبارد وفى سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوفاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامى فى تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Fraschendellum ، والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» ، وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى محالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك فى غاراتهم الناهبة ؛ وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسنها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون فى پييمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى أيدى النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين فى أملاكه فى چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلا وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها(١) .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

---

(١) Bouquet : T, IX, p. 6., Reinaud : ibid , p.128

يحتلون كثيراً من مواقع سانوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها فى طلب الغنيمة والسبى ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا فى توغلهم فى سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج ، التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين فى جوف الليل ، ومزقوهم قتلا وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية فى شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية فى دوفينه وبروڤانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية يمدها بأسباب الجرأة والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية فى جنوبى أوربا ، وعيثها المستمر فى الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق فى الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوربا ، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يبذل فى هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحى والزمنى ، وأوفد إليه فى سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التى أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزينى مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضى النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون(١) .

— ٤ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم فى آكام سان برنار

(١) Reinaud : ibid, p. 198

(فى نحو سنة ٩٦٩ م). ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم. والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه، كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء المسلمين.

واستمر المسلمون فى دوفينه وپروڤانس، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء. ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد، وأخرج منها ملكها بيرانجيه، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه»، ليعاونوه فى استعادة ملكه، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار. بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال، منذ فقد العرب معاقلهم فى جبال الألب. وفى سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزيڤودان) وطوردوا فى تلك النواحى، وساءت أحوالهم، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ فى إيطاليا، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضى النصرانية، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه.

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة: وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت، وهو سان مايول أسقف دير كلونى من أعمال برجونية، حج إلى رومة، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج، واشترطوا عليهم فدى فادحة، فدفعت بعد عناء، وأطلق سراح سان مييل وزملاؤه، وأذكى الحادث حماستهم وسخطهم، وذاعت قصة أسرهم، وما يعانيه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم. فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون، (أو بيفون)، وانتهز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة، وبنى حصناً فى سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون، ولبث يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب، فتمت الخيانة، وباغت النصارى المسلمين فى حصنهم، وقضوا عليهم قتلا وأسراً (سنة ٩٧٢ م).

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم، وهاجموا المسلمين فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه، ولم تبق إلا فى پروڤانس. ولما قوى جيوم وكثر جمعه، بسط نفوذه

على بروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط فى صفوف متراصة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى « تورتور » فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيما «فراكسنيه» التى غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض زمناً طويلا .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند ، الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين فى غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد فى إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية فى تلك المياه . فنى سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل[1] . ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو » أو موجيتوس » مدى حين سيد هذه المياه ، يبث فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

---

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها . وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1]. وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا فى إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفى راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطىء قلورية (جنوبى إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع فى هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الإستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت

(١) Finlay : Byzantine Empire, Ch. III—I

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروپيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» ؛ بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروڤانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسما ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة توراً سيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التى لاشك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هومن مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ،وكانوا أول من زرعه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطىء الريڤييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذى تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروڤانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى Quitran ينم عن أصله العربى .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب فى تحسين نسل الخيول فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى «كاماراج » فى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة ، إنما هى من سلالة الخيول العربية ، التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضى وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضى تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات پروڤانس التى استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ،فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ،وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة «التروبادور» Troubadour التى ظهرت فى جنوبى فرنسا ،وفى شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادى عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون .
أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية فى سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالا لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخم[1] ، وفى ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة فى جميع الأذهان . لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب[2] دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا »[3] .

---

(١) Reinaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغدو فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التى قامت فى إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) فى جنوب فرنسا .

الكتاب الثانى

الدّولة الأمويّة فى الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسيّة

٣٥٠ ـ ٣٧٠ هـ : ٩٦١ ـ ٩٨٠ م

الفصل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى . خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتبين . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان فى المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه فى شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته الناصر والحكم . مسير بلكين قائد المعز الفاطمى إلى قتال زناتة . ولاء زناتة لبنى أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زناته . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً فى جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولى العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم فى إنشائها . ذيوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصرى . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة فى عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسى فى هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية فى عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده(١). وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١م) ، وكان الحكم يومئذ فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة فى ٢٤ من جمادى الأولى وقيل فى غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م)(٢) وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد فى قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك فى البهو الأوسط الذهبى ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة ، وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الجند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم فى المجلسين الشرقى والغربى ، وفى مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند ، فيما وراء باب السُّدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس فى الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك فى مقبرة القصر(٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً فى شئون الملك ، بل لقد مارسها فى حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر فى توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه فى اليوم التالى لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ؛ والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثانى إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[1] .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث[2] رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة ، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فنما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فرلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية فى وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك فى آخر صفر سنة ٣٥١هـ (٣٠ مارس ٩٦٢م) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفى فى قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه فى الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه فى دار الناعورة الفخمة ، وبولغ فى إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ فى الاحتفال بالزينات ، وإظهار الأسلحة والعُدَد . وجلس الحكم فوق سرير الملك فى المجلس الشرقى ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجىء بأردونيو وأصحابه ، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة فى بهو الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل إلى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسى من الديباج المثقل بالذهب . وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعده برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر فى الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه[1] . وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته فى تمليكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التى أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفـــة آية الإقبـــال وســـعوده موصـــولة بنوال
والمســـلمون بعـــزة ورفعة والمشركون بذلـــة وســـفال
ألقت بأيديها الأعـــاجم نحوه متوقعـــين لصـــولة الرئبال
هـــذا أمـــيرهم أتاه آخـــذاً منـــه أواصر ذمة وحبـــال
متواضعاً لجـــلاله متخشـــعاً متبرعاً لمـــا يرع بقتـــال(١)

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر(٢). ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكثه بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمدافعة المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة(٣) فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة(٤).

---

(١) أورد لنا المقرى (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى **Atienza** .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة فى اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهده ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالا نحو أراضى نافار مما يلى جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه[١] واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[٢]. واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنتى ٣٥٢ و٣٥٣هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة[٣] .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات[٤] .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

---

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم فى تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم فى شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) فى جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسى ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة[١] .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففى أواخر سنة ٣٥٥ هـ[٢] (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس فى مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهروا فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان فى هذه المرة من أهل دانماركة المجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس[٣] ، وعاثوا فى تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون فى تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبى ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا . وأمر الحكم زيادة فى التحوط أن تحشد بعض

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal ، وهى ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرقى اشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان(١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطىء الأندلس بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على القوات البرية والبحرية التى أعدت لمدافعة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الجند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق قوى المسلمين(٢) .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية . فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنه ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المقتبس — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ٢٣ — ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤هـ . وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرناندز . وتولى عرش نافار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الأسترياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت فى شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلى لتجديد المودة والصداقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقرباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء مرتين ، الأولى فى الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية فى الثانى من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى[1]. وفى السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت الراهبة إلبيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسميها ابن حيان حلويرة وأحياناً حلورية[2]— ، فقوبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء فى يوم مشهود ، وعقد السلم للملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج »[3]. ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضى النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٢٢ .

(٢) راجع ابن حيان فى المقتبس — القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفصيل .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هي اللغة الرومانية (الرومانشى) Romance أو « اللاتينية » ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية[1] .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملق ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)[2] ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت فى نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفى هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء المهجائين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة ، ومؤنس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسى وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسى حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

---

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

(٣) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكى . وهو كبير الجيش البيزنطى قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثانى مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش فى الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته فى العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة . فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق لمحنتهم . وأمر بالإفراج عنهم . فأطلق سراحهم فى أواخر شعبان من هذه السنة[١] وفى هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم . ورقة شعوره ، وموفور احتشامه .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، حوادث هامة . شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه . ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا فى النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) . وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت فى ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم فى فاس ، فى قلعة حجر النسر المنيعة ، الواقعة فى جنوبى تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية . أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة فى أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنّون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد ابن القاسم بن إدريس ، الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية فى أواخر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية . ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون بنى أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم فى شمال العدوة على مقربة من الأندلس .

---

(١) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها — ص ٧٣ — ٧٥ .

وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى إبنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى[1] ، وكان الأندلسى هذا قد استقر فى «المسيلة» فى المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر فى إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناتة الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة فى زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب فى وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهزم الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة : واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته[2].

---

(١) ذكر ابن حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفراً وأخاه هما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سماك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة إلبيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جدهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هنالك بأبى عبد الله الشيعى ودخل فى مذهبه . ولما ظهر الشيعى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكاماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعده الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه فى الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته (راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ص ٣٣ — ٣٦

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمهما إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولهما قرطبة فى ركب فخم برفقة صاحب السكة والمواريث وقاضى إشبيلية محمد بن أبى عامر ، ثم استقبال الخليفة لهما ومن معهما من أعيان بنى خزر ، وذلك بالمجلس القبلى من قصر الزهراء ، فى حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند وأهل الخدمة بأنواعهم —

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بُلُكّين (بلقين) أن يسير فى الجيوش إلى المغرب جسيما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناتة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فمزقهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، إلى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦٩ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع فى يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا[1] .

وسارع الحسن بن كنون ، القلّب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة : ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية .

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفى مقدمتها رأس زيرى على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى مؤازرة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا فى الدور التى خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى نفقة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بنى خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام. يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكان يوم جعفر بن على ومن ورد معه من أحد الأيام العظيم بقرطبة ، فى اكتمال حسنه وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً فى أهلها ، قاضياً من عجب الجلالة ، وكل شىء فآلى انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » (المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧) .

(١) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبة من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٦ — ٨ ، ويرجع الكاتب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بحشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١هـ (يوليه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ فى طنجة ، فخرج فى جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قوانه ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان فى مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفى مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازى خمسمائة ومن الرجالة ألفاً ، وكان ذلك فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١) .

وأراد الحسن فى نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار فى مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله فى كتابه : « أن أفضل ما احتمل عليه ، وعمل به ، استشعار الحزم ، وادراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن — أهلكه الله — حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا ،

---

(١) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » التى سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة فى الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو فى طغيانه مستمر ، وفى دينه مستبصر ، ولكم فى كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عن المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر إصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه »(١) .

وبادر الحكم فى نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمده عدا الجند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد فى قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية . وقال له : « سر ياغالب مسير من لا إذن له فى الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك فى الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »(٢) . فخرج غالب فى قواته الجرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك فى الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظم أهبته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة فى الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب فى رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقى معه فى قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفى أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبى عامر إلى العدوة بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم فى نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبى عامر

---

(١) ابن حيان — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبذ تاريخية فى تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى فى كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالعدوة ردا على كتاب منه وجاء ، فى خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدوة ، إلى ما يتقلده من خطتى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية[1] . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبى وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه جملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته فى سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم ؛ وفى صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمى المعروف بالطبنى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن[2] . وفى تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر فى النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى فى مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم فى جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ؛ وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلا من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما فى شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها[3] .

(١) ابن حيان — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .
(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .
(٣) ابن حيان فى المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ — ١١٥ .

وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبى تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان فى ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك فى قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة فى جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »[1]. وأشرف غالب فى ركبه الحافل على قرطبة فى أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له فى الدور التى أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء فى صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة فى عسكره ، وفى ركبه الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان فى تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب فى موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه فى المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله فى المجلس الشرقى المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل فى مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلات[2] . وعين من حاشيتهم فى ديوانه سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

---

(١) راجع الكتاب المذكور فى المقتبس — قطعه أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ — ١٨٢ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ — ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، «سوء خلق الحسن ولجاجته» . قال المؤرخ : «وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً ، شديد الجرأة ، قاسى القلب» . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً(١) . وهكذا ثقل وجوده وذووه فى قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحَفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم . واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيجىء (٢).

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنثالث ، صاحب قشتالة وألبة ، قد خلف أباه فى الحكم ، منذ وفاته فى سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، فى إظهار رغبته فى السلم ، ثم يقوم فى الوقت نفسه بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدوة ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضى المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة سالم ، والذى يتوسط أراضى بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ؛ فخرج فى أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

---

(١) «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع فى سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ — ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ — ٨٨ . و «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ٦ — ١٢ .

المنطقة ، فى أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال .
ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، فى طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، فى سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت فى أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم فى العام التالى ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضى والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات[1] .

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون الأندلسى . وكانا قد استقرا فى قرطبة ، فى كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ فى نفسيهما ، فقيل إنهما تكلما فى حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر فى الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا فى المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك فى رجب من العام التالى ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسعفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته[2] .

---

(١) راجع ابن حيان فى « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣و١٨٨و١٨٩) . وراجع بحثاً فى ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

Embajodores de Castilla encarcelados en Córdoba de los ultimos anos de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ — ١٧٤ .

وعمد الحكم فى نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، لما لقيه منهم فى حربه ضد الحسنيين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان فى مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل فى محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انحيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان[١] .

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم (الضرائب) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً فى الناس يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم[٢] .

وفى شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى فى مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شنترين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض[٣] .

وفى أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (ابريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

---

(١) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

(٢) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملا (ص ٢٠٧ و ٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمترى منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

(٣) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة . وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم : وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن فى قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم فى أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدها فى التهادن والسلم . وفى منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم فى أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقترب منهم لنصرتهم ، بنبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج فى قواته ، فعاث حيناً فى أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرب القرى ؛ وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها(١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سر أيما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح النافارية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء ، ولكن هذا الولد توفى طفلا ، فحزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

(١) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ — ٢٣٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولى عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »[1]. وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البـــدر فى سحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعـــالى ليثبت الملك فى نصـــابه
بشرنا ســـيد الـــبرايا بنعمـــة الله فى كتـــابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلى ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه فى المجلس الشرقى منها فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمر متكفلا بشئونه[2]. وفى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النحوى أبا بكر الزبيدى الإشبيلى ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفى العام التالى ندب الفقيه المحدث يحى بن عبدا لله ابن يحي ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة[3] . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسبما تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم[4] .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
(٣) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين ، والأقنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شىء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التى نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسى ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر فى ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامى .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه فى العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها[١] . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا فى أكثر من موضع من مؤلفه الجامع فى الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم[٢] . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات فى قوله : « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً فى معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهمم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلا يوقف عنده »[٣] .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم فى إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

---

(١) الحلة السيراء ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً فى « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفى الناصر ، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التى أنفق بقية عمره فى جمعها وتنسيقها[١] . ويقول لنا ابن حيان فى دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه «الأغانى» . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة[٢] . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبى على القالى ، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه[٣] . وأهدى إليه أبو عبد الله الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب «القضاة» أو «قضاة قرطبة»[٤] ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغسانى ، كتابه المسمى بالمعارف فى « أخبار كورة إلبيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما فى بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له فى بلاطه طائفة

---

(١) J. Ribera : Disertaciones y Opusculos (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيراء — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشنى (المقدمة) .

أخرى ، من البارعين فى نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل فى هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١).

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى ، الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفيائه فى تلك المجالس أيضا ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره(٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بانشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب فى قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب . وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة اليهودى ، وزير باديس أمير غرناطة[١] .

وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام فى عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة فى أوربا — خلا رجال الدين — لا يعرفون. وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها فى المسجد الجامع ، وتدرس فى حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشى ، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف[٢] .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيرى ، المسمى باسمه العربى ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره فى علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهى من الدراسات التى كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة فى القصر[٣] .

يقول العلامة دوزى : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : ibid., p. 199—202

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897), p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »[1]..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التى امتاز بها الحكم ، والتى سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستولافونتى :

« كانت دولة الحكم الثانى دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ؛ فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتافيوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافيوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر

---

(1) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II, p. 189.

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاءة رائعة منعشة »[١] .

وقد اختلف فى تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التى أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف[٢]. وكانت توجد فى قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى[٣]. وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر . ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خرائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد[٤] .

* * *

وشعر الحكم فى أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً فى منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام فى الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه فى السكة .

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889), Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة فى اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة «كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ، فى سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الحانية على دولته . وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعانى من هذه «العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها[1] فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى . ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ ه (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م)[2] .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بنى أمية خلقاً وعلماً وعدلا . وتنوه الرواية الإسلامية فى غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلا عادلا ، مشغوفاً بالعلوم »[3] . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »[4]. وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله فى سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده فى محاربة الخمر وإراقتها[5]. وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً فى محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

---

(١) المقتبس — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم فى هذا التاريخ (الحلة السيراء ص ١٠١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، فى أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت فى الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ ه .

(٣) الحلة السيراء ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيراء ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب[١] .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه[٢] .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للنابهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلا له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه[٣] .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السيراء » ص ١٤١–١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجة ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس(١). وكانت هدية المصحفي للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاعن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه فى سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغنائه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره فى موقعة حصن غرماج فى سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين » ،(٢) وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية فى عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفى مقدمتهم ابن أبى عمروس العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبائهم » وحمل الكتب إليهم فى كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التى كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها(٣).

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف عليّ ظلوم لا يدين بما دنت

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠

(٣) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه دارى فاستزاد صدوده ‏ وإنى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ ‏ من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت ‏ وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيامقلتى العبرا عليها اسكبى دماً ‏ ويا كبدى الحرّا عليها تقطعى

* * *

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان فى أيام الحكم المستنصر ، يبدو فى بهى أثوابه الملوكية والخلافية ، وكان جلوس الحكم فى أيام الأعياد أو لاستقبال الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان فى وصف هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر الجلوس فى هذه الأيام بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم فى ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضى الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ، وأسباط الخلاف ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالى ، ثم قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعـدول ، وأعيان قرطبة . ويصطف الجند فى أثوابهم الزاهية ، منذ مداخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان وصف هذا النظام فى مختلف المناسبات الرسمية ، مما يدل على أنه هو نظام البروتوكول (المراسيم) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة فى هذا العهد عند جلوس الخليفة للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث فى تكوين المجتمع الأندلسى . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر فى القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى : وكانت المعارك يضطرم لظاها

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١ و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥ .

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإماوة وبين العصبية العربية ، التى تحاول دائماً أن تقيم رياستها فى الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحليه إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلا على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درّى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحى قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتنزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها برياضها ومنشآتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم «لم يشاهدوا فى المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درّى هذا »[1] . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا فى الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبدالرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين فى الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التى حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا فى ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت فى تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون فى الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التى كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة فى المجتمع ، وكان لها فى الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، فى تطور الحوادث التى أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التى تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع فى القواعد الأندلسية فى أقليات كبيرة . وكانت تحتل فى العاصمة ، وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة فى الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها : ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، فى ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفى أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية .

وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة (١).

---

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. I, p. 250-252.

الفصل الثاني

هشـــام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر . الحاجب جعفر يناهض مشروعهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة فى يدى الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها فى بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . طبيعة العلائق بينهما . مصانعته للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفى بين الرجلين . الخليفة الصبى هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبه والحجر عليه . دور ابن أبي عامر فى ذلك . طموحه فى الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذيوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحفى . محاولة المصحفى التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنه القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاءل مكانة المصحفى . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر فى مطاردته . وفاة المصحفى أو قتله فى سجنه . شعر له فى محنته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفى الحكم المستنصر بالله ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الخصيان ، الفتيان فائق وجؤذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التى وضعاها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر فى تنحية ولى العهد الصبى هشام عن العرش ، واختيار عمه أخى المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفى يدهم الحرس الخليفى ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة . فكانوا بذلك قوة تخشى بأسها .

استدعى فائق وجؤذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحَفى ، ونبآه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، فى تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبى عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى فى نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة ، فى تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولى المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره فى الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، فى سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبى عامر فى نفر من أصحابه ، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لابن أبى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم فى أمره . ولكن الرد كان قاطعاً فى وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن فى نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله فى يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتيان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر[1]

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

وسنرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه[1] .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحظوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنهُ الذى يعاينه ، والمبانى قد بلغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »[2] .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدى رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . (٤٨ – ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التى لبثت ردحاً طويلا من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[(١)] .
وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها «جعفر»[(٢)] ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[(٣)] أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية «بالسلطانة صبح»[(٤)]. بيد أن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol, II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V 1. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol, II. p. 190 & 195.

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير فى مركزها الشرعى[1] .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع فى البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون . وكانت كلمتها هى العليا ، فى تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية محمد بن أبى عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه فى أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر فى الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طرُّش الواقع على نهر وادى يارُه ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبى عامر بحصن طرُّش وأنفق فيه حداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدَثاً ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة[2] : وكان محمد بن أبى عامر فى نحو

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[١] : ولما توفى عبد الرحمن طفلا ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام : وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكّة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) : وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبى عامر فى أواخر أيام الحكم على النحو الآتى : صاحب الشرطة الوسطى ، والمواريث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبى الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »[٢] :

وهكذا وصل محمد بن أبى عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر فى أعوام قلائل . ويرجع الفضل فى تقدمه بتلك السرعة ، أولا إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال فى زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن فى خدمة صبح وإرضائها ، ولاينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب اللب ، وبثوا

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسنت كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ – ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإنى خائف على ما بيده »[1] .
ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ، وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التى عين للنظر عليها ، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة فى الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبى عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبى عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ، ويستزيده ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبى عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبديه من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، مؤثراً لجمع المال . وكان ابن أبى عامر على نقيضه فى ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرُّصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .
(٢) الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفى الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر فى معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر . وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبى عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته[١] . وبذلك أشرك ابن أبى عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً . وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، و يرتاب فى نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح فى مقدرته و براعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيىء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبى عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما[1]. ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[2]. ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »[3] . وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد

---

(1) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(2) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(3) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن يحدثه فى نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبى عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لايزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، مايزال بحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب فى فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحوطات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذى كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبى عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبى عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى . فتفاهم الحاجب وابن أبى عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته فى بياسة ؛ ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبى عامر ، فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبى عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل فى نفس المساء . ورأى ابن أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفشى فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتى فائق فى النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحُرم بدلا منهم ؛

ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو . وقد كان الصقالبة فى البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة[1] .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكى يوطد ابن أبى عامر قدمه فى السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب فى ذلك ، ما كان واجباً من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبى عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبى عامر للاضطلاع بها ، وجهز المال والجند ، وأشرف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة فى رجب سنة ٣٦٦هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضى قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس بانيوس » Los Baños (الحمامات) ، وتقع فى جنوب بلدة (بخار) فى السفح الغربى لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو[2] .

وكان لهذا الظفر الحربى الأول ، الذى حقق على يد ابن أبى عامر ، أكبر الأثر فى نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبى عامر للسير إلى غزوته

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت فى توطيد مركزه ، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقوّل به الحاجب على غالب ، من تقصيره فى الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانتهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه فى محلة مجريط (١) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الجيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبى . وكان لجيش غالب التفوق فى الأعمال الحربية فى تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيبته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً (٢).

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فما كاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، فى

---

(١) هى محلة وقلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبثت تؤدى مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدة فى ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغى والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبى عامر فى صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر فى قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبى عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده فى ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبى عامر ، وتم العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة فى أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان فى قواتهما شمالا ، وافتتحا فى طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فافتتحاها ، وعاثا فى أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبى ؛ وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفعه إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً فى الشهر ، وهو راتب الحجابة فى ذلك العصر .

وما كاد ابن أبى عامر يستقر فى قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة فى موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبى عامر ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1] ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215.

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب. ولكن جعفراً لم يسعه إلاالإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبى عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شيء فى القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ ﻫ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبى عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد فى مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخى الحاجب فقتل فى مطبقه ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبى عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً فى داره ، واضطر إزاء التشدد فى مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبى عامر فى نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المُصْحفى أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبى عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً فى مطبق الزهراء حتى توفى سنة ٣٧٢ ﻫ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً فى مطبقه ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه فى مطبقه كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لمـــا تولت ... وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فياعجباً للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يانفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، فى إيثاره هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه »[١] .

وهكذا سار ابن أبي عامر إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ في تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبي عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم »[٢] ؛ ولم يكن مهلك المصحفي ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد في نفس الوقت ، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم في البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبني أميــة أين أقمــار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منــكم عن غابهــا ... فلذاك حاز الملك هــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زناتة وصنهاجه وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة وناڤار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة[٣] .

---

(١) راجع في محنة المصحفي ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفح الطيب ج ص ١٣٧ . وراجع : Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ ﻫ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

الفصل الأول

الحاجب المنصـــــور

ابن أبى عامر يطمح إلى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده فى الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذيوع علاقتها مع ابن أبى عامر . تحولها إلى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسى يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدوة . الوحشة بين ابن أبى عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبى عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبى عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى فى شنت منكش . توغله فى ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسى . الحرب الأهلية فى ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخترق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . ندب الوزير السلمى لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غز بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لناڤار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة فى خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبدالله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبدالله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتيبن وكلونية . قصة الأيل الذى أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك إلى العدوة لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله فى جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لاكرونيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لناڤار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النسور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث فى شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبى عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة فى يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبى عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ فى الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشح بحلل الملك فى صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلاباً ، يتوج سلطانه الفعلى ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبى عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود فى قصر الزهراء ، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين[١] ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) . وقد اختلف فى الموقع الذى كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقى قرطبة فى منحنى نهر الوادى الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير[٢] . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم فى « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفية فى الضخامة والرونق .

وفى أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبى عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة فى الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعى ؛ وأنشأ ابن أبى عامر فى نفس الوقت حول القصر الخليفى سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر فى سائر شئون المملكة ، لكى يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى ، وقطعت سائر علائقه مع الخارج ، ولبث محجوباً فى أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان[١] .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم فى مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبى عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التى يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح ، كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر ابن أبى عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه[٢]

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيراء ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .

اقترب الوعـــد وحان الهـــلاك وكل ما تحـذره قد أتـــاك
خليفـــة يلعب فى مكتب أمه حبـــلى وقاض . . .(١)

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التى استطال أمدها ، بين صبح وابن أبى عامر ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبى عامر ، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى. فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبى عامر ، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب القديم ، الذى شغفها بابن أبى عامر دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة ابن أبى عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن ابى عامر ويقظته ، وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى العمل المستتر ، وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبى عامر والسعى إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين ، على ابن أبى عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت فى نفس الوقت ، أن تقوم بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبى عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع فى قرطبة وسائر مدن الأندلس

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية فى ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبى عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه . فرأى ابن أبى عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيما بالعدوة ، فعبر البحر إلى الأندلس ، واستقر فى الوزارة ، يكنفه ابن أبى عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبى عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبى عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة فى أراضى قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة[1] ، إحدى مدن الثغر التى تحت ولايته ، وجاء ابن أبى عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، فى بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع فى عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه فى بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبى عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبى عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها فى الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم فى ذلك العصر ، وكانت لديه فى الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبى عامر ، وغلب عليها ، فى البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمده ببعض قواته . وسار ابن أبى عامر لمقارعة خصمه فى معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر فى البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه فى الحال إلى ابن أبى عامر ، فدب الوهن

---

(١) وهى بالإسبانية Atienza . وهى تقع شمال وادى الحجارة ، على مقربة من غربى مدينة سالم .

والذعر إلى قوانه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصرانى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس(١) . وقتل كذلك فى المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس سنة ٩٨١ م)(٢) .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبى عامر ، وكان ممن صحبه فى تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة فى قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفى رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبى عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبى عامر فانصرنى ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جبهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان فى جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لجامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط فى أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبى عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبى عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

---

(١) وهو الذى تسميه الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف « براى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 233 & 234

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبث كذلك دهراً ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتى ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة فى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م)[١].

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التى شهرها ابن أبى عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتى خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم فى أية واحدة منها .

وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبى عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولاسيما عن الزمان والمكان[٢] ، ويجمل ابن خلدون ذكرها فى قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية »[٣] .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة فى نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هى أن ابن أبى عامر ، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر فى أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومى ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبى عامر فى غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبى عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

---

(١) راجع رواية ابن حزم فى رسالة « نقط العروس » (المنشورة فى مجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها فى كتابه الكبير الذى ألفه فى أخبار الدولة العامرية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا (ص ١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج فى مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبى عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو فى شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمعنت قواته فى التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم فى الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك ناقار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبى عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين فى ظاهر بلدة « روضة » فى جنوب غربى « شنت منكش »[1] ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكس الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبى عامر بعد ذلك شمالا إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهنالك وقف راميرو فى قواته محاولا اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا فى هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر[2] .

وعلى أثر هذا النصر ، وفى أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر » ونقش اسمه فى السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

---

(١) روضة هى بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هى Simancas .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. 180—181

الاسم [١]. هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبى عامر باسمه الملكى : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن على الأندلسى ، ورفعه إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطماعه ومشاريعه ، فى الناحية الأخرى من البحر ، فما كاد ينتهى من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه فى طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحى القاتمة ، فى خلاله وفى وسائله السياسية [٢] .

وفى ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت فى ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، محاولاته فى توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطرمت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفى أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون فى مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، فى بلدة بورتليا دى أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمده بجيش ، استطاع ان يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك فى مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ ﻫ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبغ موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه[1] .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالا . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدى المسلمين نحو قرن من الزمان، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ ﻫ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

---

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . (العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك فى مملكة أراجون القوية[١].
واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، فى أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة فى اليوم الأول من يوليه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها فى يوم الاثنين منتصف صفر ، سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م[٢] . ودمر المسلمون المدينة وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد إلى قرطبة ، حيث قضى فى الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى فى هذا الطرف النائى من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذى نشب فى المغرب الأقصى ، بين الفاطميين مذ قامت دولتهم فى إفريقية ، وبين بنى أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون فى سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً فى كنفه فى قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل فى أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى فى العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص/٧١ . وكذلك **Dozy : Hist. Vol. II. p. 239** والمراجع .

الدعوة المروانية فى المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يسير فى قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وهو من زعماء زناته بمحاربة بلكين ، وأمده بالجند والمال ، والتف حوله باقى الزعماء . ولكن بلكين استمر فى تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالى .

وفى سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) بعث العزيز بالله، الحسن بن كنُّون زعيم الأدارسة، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما ايضاً رغبة فى التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم[1]. فسار الحسن إلى المغرب ، فى جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيا بنى يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ، فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة فى قواتهم ، وفى مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بدأ من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن، آثر أن ينقض الأمان الذى منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذى تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله فى الطريق وأتاه برأسه ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب(٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدّو بن يَعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولا بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين[1] .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدوة وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدّو

---

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ — ٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٨ — ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ — ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدّو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه فى سائر أنحاء المغرب ، واستمر فى الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها فى الطرف الغربى للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبى شرقى مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى[1] .

* * *

ولنقف الآن قليلا فى تتبع حوادث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ، ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى فى غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال فى ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد فى جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار فى قواته نحو الشمال مخترقاً أراضى ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قُلُمرية ، الواقعة فى شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفى خلال ذلك كان البشكنس أو الناڤاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضى الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة ناڤار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار فى نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة ناڤار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهى تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب [١].

وما كادت تمضى أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج فى ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) فى جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضى ليون شمالا ، فرابط برمودو فى معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توا إلى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالڤو كونثالث ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق فى طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية [٢] .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه فى أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو فى فرص

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446 و Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245 .

كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بنى قسىّ ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى نافار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبى عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه(١) . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهز التجيبى الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقده على أبيه ، وائتمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحي المنصور، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم، فقرر المنصور إقالته، ولكنه رأى استمالة لبني هاشم، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة، ولده يحيى الملقب «بسماحة» (نهاية صفر ٣٧٩ هـ). ولم تمض على ذلك أيام قلائل، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن، ومحاسبته، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة[١]. .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه. ثم سار فى قواته شمالا إلى شنت إشتيبن، وبينما هو مشغول بحصارها، إذ فر ولده عبد الله فى نفر من غلمانه، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة، فوعده بحمايته وتأييده. فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده، وأقسم ألا يكف عن قتاله، حتى ينزل على رغبته، فأبى غرسية، واضطرم القتال بين الفريقين، وسار المنصور شرقاً، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل، وتوالت الهزائم على غرسية، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه؛ فقبل المنصور ضراعته، وبعث غرسية عبد الله، فى جماعة من القشتاليين، فاستقباه سعد الخادم، مع جماعة من الفرسان، وقبل يده ولاطفه، ثم تركه مع بعضهم، فأنزلوه عن بغله، وأخطروه أن يتأهب للموت، فترجل عبد الله، وقدم نفسه للموت هادئاً، ثبت الجنان رائع الشجاعة، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه فى الحال إلى والده المنصور، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة، ودفن شلوه فى مكان مصرعه، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً. وكانت غزوة المنصور التى وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة والأربعون[٢].

وقد يبدو لنا المنصور، بإقدامه على إزهاق ولده، فى أشنع الصور وأروعها. ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التى اضطر فيها المنصور، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه، وتحالفه أولا مع التجيبيين سادة الثغر، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥. وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التى نجح المنصور فى إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد ، من أول ضحاياها(١) ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ فى إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ؛ ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شىء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور فى تصرفه المثير أسوة فى كل عصر ، وفى كل قطر ، بل كانت له أسوة فى بنى أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ، وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، ومازال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً(٢) .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المروانى ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع الفرار فى الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه فى حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتيبن وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن البغدادى ، أهدى إليه أيّلا فى عنقه حبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتاله ، وبعث به إلى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثانى سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل ... مشرد ومعــز كل مــذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من ... مقداره أهــدى إليك بأيّل
سميتــه غرســية وبعثتــه ... فى حبــله ليتــاح فيه تفاؤلى

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . فنى نفس اليوم الذى قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك فى يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثانى ٣٨٥ هـ) . ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين(١).

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى . وكانت الأحوال قد ساءت فى ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق لملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقه ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة(٢) . وأما عبد الله المروانى ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح فى أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة فى طلب العفو والمغفرة(٣) .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبى عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة فى اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

---

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy : Hist. Vol. II. p. 249

(٣) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى فى سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التى كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبى عامر وفقه الله » كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة .

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ فى تكريمه وتعظيمه فى سائر المخاطبات ، واستمر ذلك بقية حياته(١) .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبى عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة فى سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل فى الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهنالك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة فى ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس فى حاجة إلى مثله ، وبيده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة(١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله فى اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت فى يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه فى سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتى كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفى الفرص النادرة التى كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير فى موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه(٢) . وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه ورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى. أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التى لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته فى تسيير الأمور ، وفى تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينتزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبى عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبى عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبى عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربته إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالا ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبه ؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى[1] .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شىء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه فى الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه فى خزائن القصر شىء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين[١] .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة فى مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه فى زى الخلافة فى موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته[٢] .

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك فى سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلى ، قصيدة مؤثرة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

---

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ — ٥٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمساك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء(١)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمده بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر فى قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى فى قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر فى فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به.

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد فى محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر فى قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحى ، وسار لقتال عبد الملك فى جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح فى قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ؛

---

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (ص ١١٩ — ١٢٣) ووردت كذلك فى يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لك الله بالنصر العزيز كفيل ... أجد مقام أم أجد رحيل
هو الفتح أما يومه فمعجل ... إليك وأما صنعه فجزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل ... بهن عمايات الضلال تزول
سيوف تثير الحق أنى انتضيتها ... وخيل يجول النصر حيث تجول

ومنها :

لئن صديت الباب قوم ببغيهم ... فسيف الهدى فى راحتيك صقيل
فإن يحيى فيهم بغى جالوت جدهم ... فأحجار داود لديك مثول
هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما ... وحق بدفع المبطلين كفيل
يجمع له منه قائد النصر عاجل ... إليه ومن حسن اليقين دليل
تحمل منه البحر بحراً من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالاة الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل[1]

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهده على المغرب ، وعاد واضح بالجيش إلى قرطبة . ولبث عبدالملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاده لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ — ٩) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقيما على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس(١).

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جلّيقية فى قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأ لملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثانى أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحوارى) التى اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت فى هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء(٢). وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية فى صميم معقلها القاصى ، وفى صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يوليه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى ، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبى دانس Alcacer do Sal فى مياه البرتغال الغربية ، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالا ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

(١) راجع حوادث المغرب فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٣٠ — ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى ، واستولى فى طريقه على مدينتى بازو وقلمرية[1]. وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم فى أراضى البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالا حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهنالك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامى بعد ذلك صوب جلّيقية ، وهو يقتحم السهل والوعر فى شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية فى تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطىء ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخائض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب فى يوم الأربعاء الثانى من شعبان (١١ اغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والمحافظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أوانس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، فى سقف الزيادة التى أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى[2].

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى برمودو التى امتنع بها وعاث فيها.

---

(١) هما بالإفرنجية على التوالى Viseu و Coimbra

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٢ — ١٩٥ . وكذلك Crónica Ceneral ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449

ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيله ، ووصل إلى شاطىء المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضى الزعماء النصارى (القوامس) الموالين له ، والذين صحبوه فى غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو فى شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفى ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دارج القسطلى فى تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقُه » (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطامها :

اليوم أنكص إبليسٌ على عقبه ... مُبرّءاً سبّبُ الغاوين من سببه
واستيقنت شيع الكفار حيث نأت ... فى الشرق والغرب أن الشرك من كذبه
بشنتياقة لما أن دلفتَ له ... بالبيض كالبدر يسرى فى سنا شهبه
وجلة الدين والإسلام عاطفة ... عليك كالفَلَكِ الجارى على قُطُبه (١)

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم سمّورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه (٢) . ولم يعش برمودو طويلا بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه فى الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه فى قاصية جلّيقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى فى أراضى النصارى ، بيد أننا لا نظفر فى شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ — ٤٤٣) . ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شلت ياقب » ، « شنتياقة » وهو أقرب إلى رسمه الإسبانى Santiago

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى ناڤار فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)(١) .
وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضى قشتالة فى جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أسترقة » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى فى قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ؛ وجمع سانشو غرسية سائر قواته فى وسط قشتالة ، فى وادى دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار فى قواته توا إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالا إلى أراضى قشتالة حيث يرابط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس(٢) وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الوقيعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضى قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس ديات Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا حلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضى ناڤار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله. ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحرار النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً(١) .

وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس . وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنئاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد	وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتـــدأ الهدى	غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حنين وقفــة	فرأيت صنع الله يؤخذ باليـــد
من فاته بدر وأدرك عمــره	جربير فهو من الرحيل الأسعد
خملت ميامنهم عليك نشـيجة	كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفى الجوانح موضع	لتصــبُّـر ومكانة لتجـلُّـد
طال الشــقاء عليهم وتبرمـــوا	بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لحنث وتجمعـــوا	لمفــرق وتألفـــوا لمبــدد

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ووصل فى زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غرباً فى اتجاه برغش وعاث فى تلك المنطقة(٢). ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا فى هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسى فرناندز كونت قشتالة ،

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ — ٧٢ .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت فى وجه المنصور فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النسور »(١) ، وتقع فى غربى مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب فى قواته تحت جنح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من الجراح التى أصابته فى الموقعة(٢) .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله فى ذلك المؤرخ لافونتى . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفى هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثانى ، وكان تحت وصاية منندو كونثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسيس الكبير .

يقول لافونتى : إنه فى هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت فى قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هى الأمداد التى وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة فى طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التى أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكى ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة فى السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا القديمة Numacia ؛ وكان يقود جيوش ليون وجلّيقية والأستورياس الكونت منندو وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا توّاً نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى فى

---

(١) وهى بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفى فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهنالك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساءه ما لقى من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التى حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى فى مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتى : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور[1] .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل ساقدرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية سانشيز ملك ناڤار فى سنة ١٠٠٠ م ،

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana. T, III. P. 24-26

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهي لا تضن علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها في هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة(١) . ويعلل مؤرخ إسباني معاصر هو الأستاذ منديث پيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئي في بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهي معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أماني المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً في سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو ، وهي أكفان صنعت من غزل بناته ، واشتريت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفي ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفي المنصور محمد بن أبي عامر ، ودفن كرغبته في صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيـك عن أخبـاره   حتى كأنك بالعيـان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثـله   أبداً ولا يحمي الثغور سواه(٣)

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

---

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II. p. 268
وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين في كتابه :
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

(٢) R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21

(٣) الحلة السيراء ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر. ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبوت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يلو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م[١].

(١) أعمال الأعلام ص ٨١ .

الفصل الثانى

خلال المنصــور ومآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله فى ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها فى إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء فى عهدة . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته فى إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله . إشادة النقد الغربى بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبى ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه فى ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه فى بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحى السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لايقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ؛ بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية ، فى شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية فى عهد الناصر ، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما فى عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت توا إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذى لايطيق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . و هنا تبرز النواحى القاتمة فى عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكياڤيللية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولا يعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة، فاستقدمهم من العدوة، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[١]. وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان، ومنحهم الأجور والجرايات السخية؛ وكان يجمع فى جيشه الكثير منهم، ومعظمهم من المستعربين، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم، ومعاملتهم بالمساواة والرفق[٢]. واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية عظيمة، لم تعرفها فى أية عهد آخر. وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو.
ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن، يقود قواته إلى الغزو المستمر، فى أراضى الممالك النصرانية، كل ربيع وكل صيف، وأنه فى نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة. وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور فى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، اكتفاء بعدد الجيش المرابط، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس، إثر قراءة كتب الفتح، وعرفوا فيه «بأن من تطوع خيراً، فهو خير، ومن خف إليه، فبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور»[٣].

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ فى عهده من الفرسان اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات، جميعهم مرتزقون فى الديوان، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة. وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع. وانتهى عدد الرجالة فى الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل.
وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة. وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦.

(٢) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨.

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار[١].

وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله ، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين ، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هي تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عني مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »[٢]. وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبي من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلي والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج[٣] .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشاتية ، ولم يقعده شيء عن القيادة ، والإشتراك الفعلي في كثير من المعارك ، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضي نحبه عقب الغزو ، بين يدي جنده وفي معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص في سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التي يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدي (القاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوي على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته[١] .

ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام والشجاعة، ويدعوهم إلى مائدته فى المآدب الكبيرة، التى اعتاد أن يقيمها لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية وغزواته المتوالية المظفرة،وإن كانت فى الأصل تنطوى على غاية عسكرية وسياسية بعيدة المدى ، هى سحق اسبانيا النصرانية ، لم توت ثمارها إلا فى حيز ضيق ، هو ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضى الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل إلى الغاية الحاسمة ، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تباعاً ، وأن تغدو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ، ويشغلها فى كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية ، لانرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو الغزوات الإسلامية العارضة ، التى كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، فى معظم الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية فى أراضى الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث فى أرض العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح فى تحطيم قوى الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً، تقتصر على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة .

ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة فى عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التى اجتمعت لها فى أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التى كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصارى إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل فى « الإسترداد » La Reconquista[1] ..

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التى تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر فى سائر المناصب التى أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصايرها فى الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور فى اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته فى عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

---

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana; p. 629

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العلو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ فى الشهر نحو مائتى ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف فى الشهر أو أكثر (١).

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبدالملك بن شهيد ، ومحمد بن جهور ، وعيسى بن فطيس وأبو ، عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه فى سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمه ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر فى شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، ورده إلى منصبه فى الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة (٢). وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ فى ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه فى مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها فى الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار — مخطوط الإسكوريال — لوحة ٥٣ و ٥٤ .

ممن حملوا عمد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبى عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور فى الحجابة فى بداية عهده ، بعد المصحفى ، جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره[1] .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمرو بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كاليوم من أيامك الأول بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا الس وسان من حينه فيها على عجل[2]

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحياؤها يومئذ

---

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربضاً «كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس» . وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلا ، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا(١) ، وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاقت رحبات المسجد الجامع برواده ، ولاسيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعيت فى إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به فى عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلا يتولاه عريفه وحراسه على حدة(٢). ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون «بمسجد المنصور»(٣) .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ — ٣٠٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى «الآثار الأندلسية الباقية» حيث يوصف جامع قرطبة بحالته الحاضرة تفصيلا الطبعة الثانية (ص ٢٠ — ٣١) .

الجامع ، وكانت فى الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها فى سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادى الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، فى مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية[١] .

* * *

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله فى ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حيان فى كتابه فى «أخبار الدولة العامرية» عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : «رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك ، ... فطأمن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية.»[٢] .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال فى رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء فى سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه فى سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار — مخطوط الإسكوريال — لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به فى كل مناسبة[١].

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته فى إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات. وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هى تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس فى أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان[٢].

ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هى شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل فى العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، فى تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »[٣].

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هى الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان .

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ – ٣١٢ ، والحلة السيراء ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادى ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور فى أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية(١) . ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف ، ويصطحبه المنصور فى نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم (٢) .

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

---

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ — ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء[١] . وكان فى غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى فى ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ فى الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[٢].

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدى ، والأصيلى وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثانى قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التى كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكى يرضى الفقهاء والدهماء »[٣]. واشتد المنصور أيضاً فى مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبى جمعة ، يهجس فى تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[٤] .

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .
(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .
(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 851
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه فى مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله فى الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنـان مشيع ... وأسمـر خطى وأبيض بـاتر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى ... أسـود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة ... على ما بنى عبد المليـك وعامر
رفعنـا العوالى بالعوالى مثلهـا ... وأورثناها فى القـديم معـافر

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشأم :

منع العـين أن تذوق المنـاما ... حبا أن ترى الصـفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عنـد أناس ... قد أحلوا بالمشعـرين الحراما
إن قضـوها نالوا الأمانى وإلا ... جعـلوا دونها رقاباً وهـاما
عن قريب ترى خيول هشـام ... يبلغ النيـل خطوها والشـاما

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدّين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالاً بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى الاختلال لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث فى يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه فى حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما فى خلاف وصيتى ، فيسرع ذلك فى نقض أمرى ، ويجلب الفاقرة على دولتى . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فإنك أبوهم بعدى . فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك ، إلى بعض الأطراف التى حصنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك ، فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبدالملك أخيكم ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفل فيكم »[1] .

---

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين فى الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ — ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً فى أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحى توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ؛ وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد .

وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثانى ملك ليون إلى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١).

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتذراً إليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته. والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً « شنجول » أو «سانشول» أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 71

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ؛ ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق فى صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفين . وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور فى عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور فى هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعاظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدى المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسى مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفى أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر فى وفود الملوك النصارى عليه ، ملتمسين منه الصلح والمودة[1] .

• • •

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته . وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، تنم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة فى تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلا إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »[2]. وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »[3] . ويصفه الفتح ابن خاقان فى « المطمح » فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و ٧٣ و ٧٤ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكاهم جناناً ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام »[١] .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور فى تلك الفقرة : « وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره . فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانتها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها فى قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه »[٢] .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور فى مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم فى حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتى المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ...

« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

---

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) نقله صاحب الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف » .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره »(١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق فى شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعاً »(٢) .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث پيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام فى اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية »(٣) .

ويلاحظ الأستاذ پيدال فى نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين(٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الجملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور فى اغتصاب السلطة ، فمن

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

(٣) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72

(٤) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 423

الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف فى لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق فى القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الواسطة . لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به »[1] .

---

(1) Dozy : Hist. Vol. II. p. 275

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية

خلال القرن العاشر الميلادى

نهوض اسبانيا النصرانية فى عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثانى . الحرب الأهلية فى ليون . استقرار راميرو فى الملك . ولاية قشتالة . جهادها فى سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كونثالث . ثورته ضد راميرو الثانى . هزيمته وأسره . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته لملك ليون . استمراره فى العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردنيو وسانشو . معاونة فرنان كونثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كونثالث . اضطراب الأحوال فى ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . نكثه لعهوده . فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة ونافار . اضطرارهما لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة فى جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كونثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضى المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور فى ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلوس ولده ألفونسو . مملكة نافار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف فى مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها فى النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها فى ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، فى أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته فى عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، فى موقعة شنت إشتيبن فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتيبن ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضى الإسلامية ، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة . ولكن وفاة أردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، ففى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطر أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف فى بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسبانى الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التى أنزلها راميرو الثانى بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى مر القرون ليمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التى ورثت عن التشريع القوطى ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »(١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف . وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضى الإسلامية ، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إنجادهم بالفعل، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين فى معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذى اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذى بلغ ذروته فى موقعة الخندق المشئومة ، التى دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة فى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ — نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور فى مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربى فى جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الحلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلى ، بل كان يشمل أيضا قسمها الشرقى ، فى منطقة قشتالة ، التى كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla »(٢) ، وذلك لكثرة الحصون التى كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التى استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب ناڤار ، ومن

---

(١) M. Lafuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.860

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى فى الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبة » Alava « ألبة والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضى التى سميت فيما بعد أراجون وسوبرابى ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوبييدو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى ، وثاروا بالفعل فى عهد أردونيو الثانى فى أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلى ، مقره فى « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، فى شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ، الذى غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسبانى فى العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثانى ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ فى أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين فى موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة فى هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن فى مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية . ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا فى الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ، وولائهم لأميرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهمتهم المخلصة فى الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضى ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .

وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغدو عرشها من بعده وراثياً فى أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية(١) .

٢ — مملكة ليون

وفى أوائل سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه فى ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه فى الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر فى العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة إبنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ؛ ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون فى تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة فى أوائل سنة ٩٥٥م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Altamira : Hisroria de Espana, Vol. I. p. 244—245.

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو فى الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التى عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى فى الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل فى أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى فى الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت فى مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين فى بعض المعارك التى خاضها ، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف فى ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث ، وكان أحدباً دميماً سيىء الخلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشوا إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفى سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذى كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون فى الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثالث اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلا عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضى الإسلامية . وكان يرى فى نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيبته فى نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثالث ، على قول المؤرخ الإسبانى « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة »[1] .

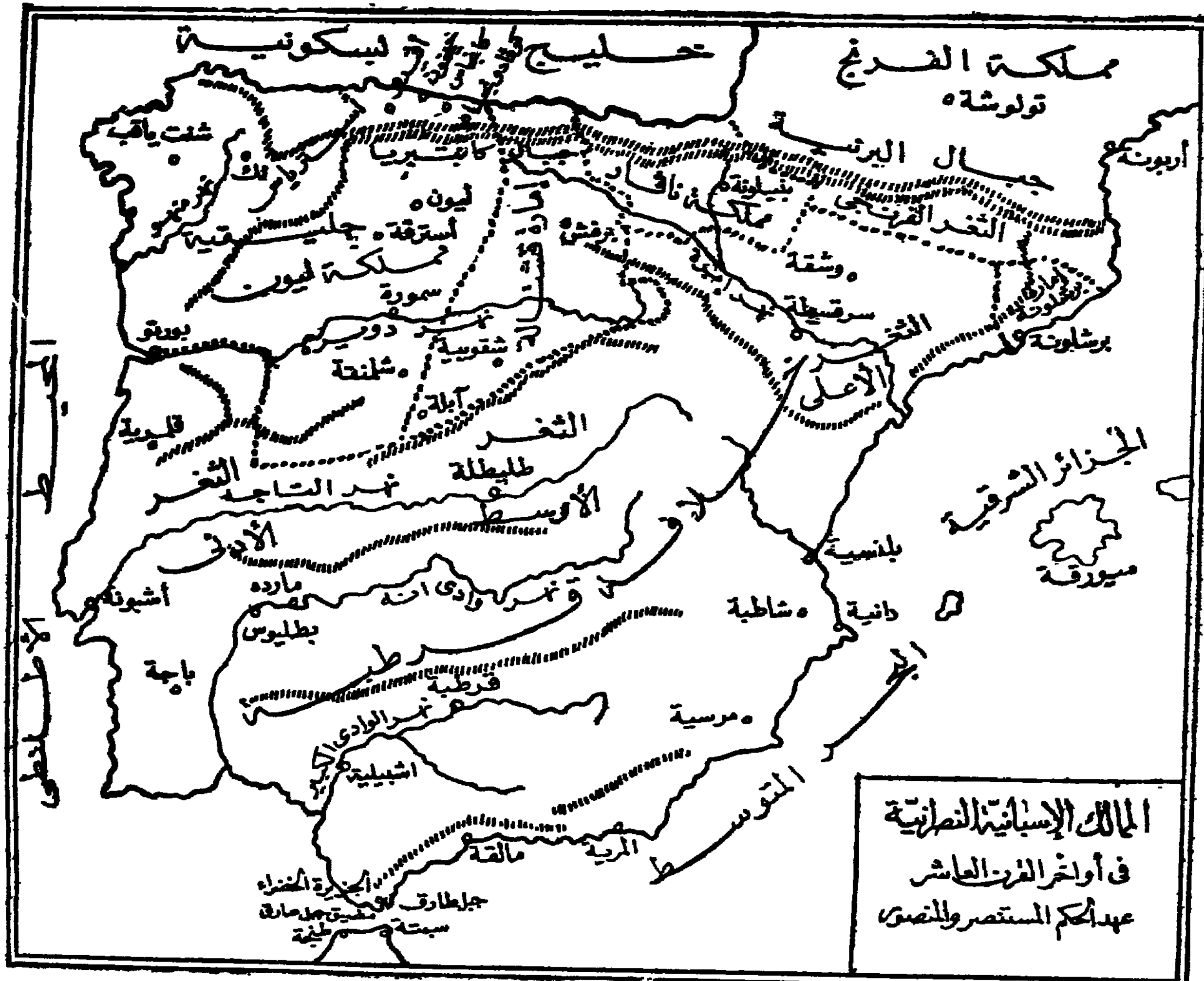
وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء فى حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بداً من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بداً من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسـلامية ، أراضى قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث ، فى موقعة شنت إشتيبن ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربى نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضى المسلمين ، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة ، ما بين سنتى ٩٦٣ ، و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهى أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها فى تاريخ الكفاح ، بين إسبانيا النصرانية

---

(1) Modesto Lafuente : ibid ; T. II. p. 361



الممالك الإسبانية النصرانية
في أواخر القرن العاشر
عهد الحكم المستنصر والمنصور

واسبانيا المسلمة ، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراساً فى محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم فى ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجه تريسا ، وأخته الراهبة إلبيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات فى العام التالى فى حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين فى مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً ، الكونت جوندسالقو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله فى المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالى ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل فى الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٩٦٦ م[1] .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

(١) Modesto Lafuente ; ibid, T. II. p 241—842

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت فى ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما فى ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلى . وكان مثل فرنان كونثالث فى الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هى ثورة جوندسالفو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفى خلال ذلك ، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م وخلفه فى الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفى غرسية سانشيز ملك نافار وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى .

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التى تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة فى نظرنا ، فإن معاملته للملوك ليون راميرو الثانى ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الردىء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك نافار ، حليفاً وخصماً بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً فى تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها فى صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه فى منتصف القرن العاشر (الميلادى) ، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملوك ليون »(١).

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفى مقدمتها مملكة ليون ، التى شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضى المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جلّيقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات فى موضعها .

(١) Madesto Lafuente : Ibid., T. II. p. 361

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشـغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضى المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضى الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبى عامر لرد عدوانهم ؛ فغزا أراضى قشتالة فى أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة فى العام التالى . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التى شهرها المنصور بن أبى عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتى فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته ، فى حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها فى موقعة شنت منكش فى سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرمت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها . فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخربها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية ببرمودو ، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ؛

وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة اسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة معظم أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود إلى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما فى إصلاح الكنائس والأديار والقلاع ، التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلا . وقام بالوصاية عليه الكونت منديث كونثالث أحد أشراف المملكة[1] .

٣ — مملـــكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله ، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها ، وسحق قوى نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا ، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلا ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا إبنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من إبنة أخرى لطوطة هى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : ibid, Vol. I. p. 246

سانشا. وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً فى الممالك الثلاث . ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ م ، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت ناڤار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا الناڤارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة فى معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلائق بين ناڤار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل فى ناڤار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك ناڤار بأن يسلمه أسيره فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهنالك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشيز ، خلفه فى عرش ناڤار ولده سانشو غرسية الثانى . وكانت مملكة ناڤار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية ناڤار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه الجرأة ، فغزا ناڤار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك فى سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفى عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفى غرسية فى العام التالى ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ — عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع فى اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية .

لم يكن فى اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم فى الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية .

وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف فى أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف فى تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضى والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصارى ، كانوا ينتقلون إلى الأراضى الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء فى عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم فى الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً ، ليشتركوا فى الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ؛ ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا فى حل من تركه إذا قصر فى حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك فى طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة فى بناء داره ، وتنحصر حقوقهم فى التمتع بالسكن ، والعيش فى الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو فى معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، فى قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحروب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، فى أعقاب الثورات التى يشتركون فيها . أما العتق فكان يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل[1] .

٥ — تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسى ، وتوزيع السلطات السياسية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هى الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هى أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التى يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذى يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذى يقود الجيش ، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

---

(1) Altamira : ibid ; Vol. I. p. 287-293

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية فى جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر :

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياع والحصون ؛ وكان السيد يعيش فى حصنه ، وهو يقع عادة فى موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولايزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف. وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة : وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولوكان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ فى أحيان كثيرة صورة مطلقة فى المدينة وفى الحقل ، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين[1] .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى ، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا عديدة داخل الدولة ، يتنافى فى جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بنى أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ، لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب عملية واستراتيجية .

---

(١) R. Altamira : ibid, Vol. I. p. 293-299

الفصل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعهده وبخلاله . يحلو حذو أبيه فى سياسته نحو المغرب . يتابع سنته فى الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر الأعلى . عيثه فى أراضى برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه فى الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر فى مدينة سالم . غزوة قلونية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استئنافه الغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه فى الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الوقيعة فى حقه . استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تآمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفى المنصور بن أبى عامر بمدينة سالم ، فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ، وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس . واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافى ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض فى الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العدوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور فى الحكم ، فى الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٦٤ ﻫ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك فى شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه فى كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء فى تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار فى غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان فى قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله فى دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق فى بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، فى السرّ والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا فى الأحوال ، وتناغوا فى المكاسب ، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا فى الفرش والأمتعة ، واستفرهوا المراكب والغلمان ، وغالوا فى الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه . ولم يدهنوا فى طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك فى عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه[1].

بيد أن هذه الصور المشرقة التى تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قائمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه فى لذاته[١].

افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له فى نفوس الناس أطيب وقع ؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، فى سائر بلاد الأندلس . فكان لذلك أثره فى التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، فى تأييد زناتة ومغراوة ، والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة ، فى سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب إليه عبد الملك بعهده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده[٢].

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه فى متابعة غزو الممالك النصرانية ، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدوة ، للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ؛ ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، فى شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه ١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس شاكى السلاح ، فى درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، فى أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكتنفه الوزراء الغازون معه »[٣]. وسار عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستقصاء ج ١ ص ٩٥ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولا إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهنالك انضم إليه الفتى واضح فى قواته ، ووفد عليه فى نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً فى سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التى بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش[1] ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره[2] ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك فى بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبى .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر فى بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالا فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة فى جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوبياً إلى قرطبة ، فدخلها فى الخامس من ذى القعدة . وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء مهنئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفى اليوم التالى جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً[3] .

وقد نظم ابن دراج القسطلى فى التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

---

(١) هو باسمه الإسبانى حصن Meya .

(٢) هو باسمه الإسبانى حصن Monmagastre ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منقص (أعمال الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع فى أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ — ٩ ، وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

وقد قدّم النصر العـزيز لواءه ... وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقـد فى سبيل الله جيشاً كأنه ... من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب فى أقدامها النجح والهدى ... وألوية فى عقدها اليمن والنجح[١]

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها[٢] .

وكان من أثر هيبة عبد الملك فى نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً فى العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث . فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م)[٣] .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإنا نجد عبد الملك يخرج بقواته فى صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضى قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفى العام التالى (٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك فى قواته وسار

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ، وهنالك لحق به الفتى وإضح وسانشو غرسية فى بعض قواته ، ثم سار شمالا نحو أراضى ليون ، وبعث واضحاً فى قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون فى بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاث عبد الملك بعد ذلك فى أراضى ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ، ووصل فى زحفه فى جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبى . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن(١) .

وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذى اتخذه الجيش الإسلامى ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا إلى أراضى ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر ، وهى إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا فى هذه الغزوة بسيط أبنيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا فى أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سبباً فى نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد فى استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التى ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شىء من الغنائم والسبى ، التى كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور(٢) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج فى طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر

---

(١) راجع أخبار هذه الغزوة فى الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثانى ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطاب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التى كانت قائمة بين ملوك بنى أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف[1].

ونمى إلى عبد الملك فى تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشوغرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة فى صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) فى غزوته الخامسة ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضى قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشوغرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى فى مقدمتهم بنوغومس[2] . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله «غزاة النصر التى لقى فيها (أى عبد الملك) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها »[3]. ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى فى تلك الموقعة هزيمة عظيمة فى ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتبين ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين. وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة ، فوصل إليها فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[4] .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصرى هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

---

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بلقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها . فنى منتصف المحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ، واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال بمرسوم التكريم الذى التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أبحنا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشىء نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبى مروان عبد الملك بن المنصور» . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس(١) . وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمجانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ — ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)[١]، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل فى طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً فى قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الجند ، كلما سنحت فرصة خروجه فى موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبدالملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً فى ضيافته[٢].

وكان عبد الملك لانهماكه فى الشراب واللهو ، قد اعتمد فى تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم فى تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستئثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه ،وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ،وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله فى تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة فى يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شىء فى القصر وفى الدولة ، وسما شأن الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر المقرى أن وفاة عبد الملك كانت فى المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب . ومرض الحاجب فى أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو فى شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى طرفة بسيده فى سرقسطة ، فقدم إليها فى بعض القوات فى نفس اليوم الذى وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك فى قصره ، حتى قُبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو فى طريق العودة ، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة(١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلا بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب فى مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسبما رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد فى توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ، حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور . وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة فى حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة . بما كان يجنح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر فى مظالمهم ، والتعالى عليهم ، وكان حجابه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف فى معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً فى تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب فى مجالس شرابه وأنسه إلا فى القليل النادر ، لأنه كان مقلا للشراب ، فكان تخلفه يمهد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ — ٢٦ .

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقيعة فى حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب فى الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه فى ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته فى وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع التقلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه فى نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات فى يده ، ومشايعة رؤساء الجند له ، أقوى رجل فى الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف فى وجه بنى عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى فى الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان فى عهده نحو ألفى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم فى حوادثها شأن يذكر (١). وفى رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان فى أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم فى الجواز (٢). وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل فى هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، فى إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه فى الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص فى أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلبى ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفى رواية أن عبد الملك بادر فى الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، فى مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل فى بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل فى عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه فى وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة فى النهر ، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة فى مكانها حتى انقضت الدولة العامرية ،

ونفذ الجند فى الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة فى أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله فى سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع فى قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه(١) .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة فى يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلات ، ومما أسقطه للناس من سدس الجباية ، فاقتصد فى النفقة ، واجتهد فى توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية فى أواخر عهده(٢)

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقاتمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع فى مجالسه سوى الأعاجم من الخلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه(٣) . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادى ، وجعله شاعراً ونديماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلى ، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ — ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ — ٣٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، فى وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والنرجس ، والبنفسج ، والورد والسوسن . ومما جاء فى قصيدة ابن دراج فى وصف السوسن ومديح الحاجب عبد الملك تلك الأبيات[1] :

إن كان وجه الربيع مبتسما   فالسوسن المجتلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبق   يطيب ريح الحبيب ريّاه
ياحاجباً مذ يراه خالقه   توّجه بالعلى وحلاه
إذا رآه الزمان مبتهجاً   فقد رأى كل ما تمناه
وإن رآه الهلال مطلعاً   يقول ربى وربك الله

ونظم بعضهم فى وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جديد وصنع جديد   ودنيا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب   وعز يدوم وعيد يعود
ودهر ينير بعبد المليك   كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ — ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى . كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه فى عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلاله . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فى اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فى الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العامة . خروجه إلى الغزو . يخترق أراضى ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فى قرطبة . الاضطراب فى الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بنى عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبى عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الدير . وقوعهما فى يد فرسان المهدى . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسى وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ماعرفت الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذى فرضه المنصور ابن أبى عامر على الشعب الأندلسى ، وقضى فى ظله على سلطان الخليفة الشرعى ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى فى المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه في الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفي المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبدالملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد في ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك في الملاذ ، والمضي في اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنبر الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خلالا ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، في السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرّف ، حينما تولى الحكم ، فتى في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثته « بشنجول » (سانشول) أو شانجُه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضي معظم وقته في الشراب واللهو ، يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متنزه ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهراً بالفتك ، وشرب الخمر »[1] .

وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ، وفى الاستبداد بالرأى والحكم[2] ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ، فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ، وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ، ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ، وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند ، ونزل بقصر ناصح . وهنالك عرض عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب جَهْوَر بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرِّف حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً[3] .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة بالزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر القصر الخليفى فى أهله ، إلى منية جعفر المجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ — ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، بجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بنى عامر ، فتخلف أسرة بنى أمية فى ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلا ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع فى تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جبرها بالعجلة »(١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة ، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (ناقارية)(٢). ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدده بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده(٣). ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضى الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد(٤) . وعلى أى حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه — إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلتى الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر فى أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً فى الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ فى سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى ، الذى حدث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا متروك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه فى هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ »[1]

* * *

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ فى تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن فى موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «يختال فى ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها »[2] . وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

---

(١) ورد نص هذا المرسوم فى أعمال الأعلام ص ٩١ — ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد فى أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن حون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب فى الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفى اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذوّبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك(١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجه ولى عهد(٢)

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ — ٩٦.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر فى أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لا يزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبدالرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جلّيقية ، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة فى هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) يأتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو[1] ، وعهد بإدارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى فى أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طايطلية فى طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته فى رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق فى غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، فى تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر فى فلك المجد دارا ... فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود ... غيوب المنى فى سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادى القلوب ... تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ... ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا[2]

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث فى قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار فى صروحها . وتسربت الأنباء إلى الجند ، فوقع الاضطراب فى الجيش ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ – ٤٦٣) .

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، فى طريقه إلى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقــدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبدالرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبدالملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً فى الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة(١)، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى فى أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سراً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سراً فى كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعاته فى المدينة أن دولة بنى عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر فى نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم فى العامريين نوادر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون فى تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »(٢) .

ولم يكن المروانية ، وحدهم فى هذا التدبير الذى قصد به إلى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش ، ومن المضرية

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التى عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بنى عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التى دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط فى قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة المتذمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذى اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب فى قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدرى فى أى واد يهلك »(١) .

وفى يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون فى الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . فى عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن فى الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادى الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل فى قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفى الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس المجوسى ، وهو أشدهم

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم فى الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبى عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجىء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة فى ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلالم ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بنى عامر عن الحكم ، وأن يشركه فى أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمه ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة فى كرسى الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة فى خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولى عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بنى عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد فى الحال بنى عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة فى جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام فى الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة فى تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلا منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور فى وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التى سوف تطيح بكل ما نعموا به فى ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا فى قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفى صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبدالله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التى أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحُرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ؛ وأطلق المهدى الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الجوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدى بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدى إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ؛ وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يازاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة[1] .

— ٣ —

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو فى طيلطلة ، بادر بالسير فى قواته إلى قلعة رباح ؛ والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن فى الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول فى الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يعلى الزناتى زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم فى نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى إليهم القاضى أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول فى غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان إلى جانب شنجول فى معسكره ، زعيم من زعماء بنى غومس سادة مقاطعة كريون فى جليقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود فى أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصرانى إلى جانب شنجول حتى النهاية (١).

وعلى أى حال فقد سار شنجول فى قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى «منزل هانى» ، وهى أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخى سدوله ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه ، وابن غومس فى نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول فى أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلا إلى الدير القريب. وكان محمد بن هشام فى تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار ، بعث فى الحال الحاجب ابن ذرى فى طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدى ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفى خلال الطريق طلب شنجول أن يفلك وثاق يديه قليلا ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده فى صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح فى الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدى فى نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدى فحنطت الجثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور فى اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثتمة الشهر ، وفى مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بنى أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماءة . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حسبان مخلوق تمامه »[1] .

* * *

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ والدولة محكمة النظام ، وطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شىء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملا جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبي الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر فى شىء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض — نير بنى عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبى دون تدبر ودون تحوط. ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، وواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سُقوط الخلافة الأندلسيّة
ودولة بني حمّود

٣٩٩ — ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبى . شخصية المهدى . اضطهاده البربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدى للفتيان العامريين . إخفاؤه الخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيثه وطغيانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدى . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدى على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدى للدفاع . مسير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جموعهم . المهدى يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدى وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدى وحلفائه الفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدى. مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائتمار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيثهم بأراضى قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعى الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى ببنى عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدوها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامرى ، وكان عددهم قد تضاعف فى أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبي ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبي ، ولاية الخليفة الجديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دروا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التى تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التى أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً فى كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى فى هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدى نحو البربر فى سوء معاملتهم ، والتشدد فى دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق فى ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .

وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر فى ضاحية الرُّصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التى قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر فى موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدى بالشكر ، وبعث إليه أموالا ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه فى القصر أولا ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه فى بعض منازل قرطبة . وتوفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم فى اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ(١) .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ فى الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ و ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفى مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد فى التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، فى كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشى سوء العاقبة على بنى أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى فى خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفى مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام فى قصره ، فبعث إلى هشام القاضى ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربى حول محمد ؛ وخرج محمد المهدى فى جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدى جميعاً [١] . وانثالت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك فى أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط [٢] ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرض المهدى على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثماناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك فى مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدى من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهى بالإسبانية **Guadimellato**

الأذى، وكتب إلى البربر فى أرملاط أماناً، فلم يلتفتوا إليه، وغادروا أرملاط وساروا شمالا إلى قلعة رباح، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم.

وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وكان إماماً للبربر، فسار معهم، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى، ولقبوه بالمستعين. وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث فى قرطبة باهتمام، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر، ففاوضه سليمان وزعماء البربر فى طليطلة على أن يمدهم بالجند، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود، فقبل معاونتهم؛ وفى أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً. وأمده المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق، فجمع جموعه وسار لقتال البربر، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة. والتقى البربر وجيش واضح فى مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية **Alcalá de Henares** فهزم واضح هزيمة شنيعة، واستولى البربر على محلته وسلاحه، وفرت فلوله صوب قرطبة. وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١).

وارتاع المهدى لتلك الهزيمة، وأخذ فى تحصين قرطبة، وحفر حول فحص السرادق، وهو محلة البربر خندقاً، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة. وكان واضح قد أتاه منهزماً فى أربعمائة فارس من الثغر، انضمت إلى قواته. وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى فى جموع البربر، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية، صوب قرطبة، وعسكروا بشرقها فى سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ. وبرز واضح فى جموعه من أهل قرطبة والثغر، واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م)، واضطرمت بينهما معركة شديدة، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة، فارتد منهزماً إلى الوادى، وتبعه البربر بعنف. فضاقت بهم المسالك، وقتل منهم عدد جم

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧.

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح فى رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى المهدى هزيمة جنده ، سقط فى يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسبما تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وبعث القاضى ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعى ، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدى أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم فى أثره فى يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبى القُلَّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد فى بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر فى الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم فى دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن فى دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعده البربر بتسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا فى ربض منية العقاب .

أما محمد المهدى فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح ، خرج فى قواته من قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل فى استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفى خلال ذلك كله كان الفتى واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر فى قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما فى اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندى دينارين فى اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل فى طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين(١) .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدى فى قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة فى مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك فى منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته فى المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفى مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان فى بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفى اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة ، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابته(٢) .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته . فجمع الأموال

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطياتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادى آره » أو وادى يارو[١] . على مقربة من موبلة فى طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا فى معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم[٢] ، ووقعت هذه الموقعة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدى إلى قرطبة ، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريُّه ، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدى على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر فى أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر . وفى أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفى مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدى ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدى بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها فى الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)[٣] .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلا فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

---

(١) وبالإسبانية Guadiaro

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدى ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدى .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدى إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ ﻫ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتى افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر. ولم ير هشام وواضح بدأ من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين(١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتيبن ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى .

واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيثهم فى أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس فى قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بدأ من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح ، وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحى الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها فى الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته فى اغتيال المهدى ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة فى بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه(٢) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

---

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لايستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لايدخر وسعاً فى العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء[1] .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلماعرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية فى مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً فى خمول وبؤس حتى توفى . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحى ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

---

(١) راجع فى سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشى ص ٢٢ — ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ — ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بنى زيرى ، ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمَّر وازداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغر سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون فى شئونها مكانة لها خطرها(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك فى القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد .

وقضى سليمان المستعين فى الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى فى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش فى صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد فى مصاير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شرَّف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهى الوحيدة التى عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عنانى » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حدَّ سنانى … وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً … منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى … زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظرى … من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى … حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ — ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبي الحمى وتركننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عزٌّ وملك ثانى
ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمّن إلفه ... خطّب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى فى غبطة وأمان[1]

(١) ابن بسام فى الذخيرة . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ .

الفصل الثانى

دولة بنى حمود

ظهور البربر فى الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خيران العامرى ينتزع المرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده فى معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . إستقرار المعتلى فى الثغور الجنوبية . رد الأمر لبنى أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفى . إضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبنى أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بنى أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقنه . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافه محمد بن إدريس المهدى . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بنى القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بنى حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبى عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه فى مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية فى أواخر عهدها ، وعاونوا فى توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى فى قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التى اضطرمت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية فى تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدى ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم فى الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، فى اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية . ولما فشل البربر فى محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعى ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر فى معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما على والقاسم ابنا حمُّود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وإذاً ، فقد كان على والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة على والقاسم ، إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على[1] ، ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشى وابن عذارى ، وابن الخطيب[2] .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التى ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربرى غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك فى حديثه عن على بن حمود[3] .

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى فى البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك فى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفى الوقت الذى استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقى الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفى مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذى استولى على المرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية ، بمؤازرة واضح والجند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا إلى واضح ثم اشتركوا معه فى تدبير اغتيال المهدى ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسى الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرقى الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية وغيرهم ، ثم زحف على المرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبى ، فانتزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه فى تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش فى الواقع ، فى صدور أولئك الذين رأوا فى ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمّود الحسنى ، قد ولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى فى الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب المرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك[١] . فذاعت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ﻫ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة والمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى .

ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ ﻫ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكانوا لاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أوم لد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ ﻫ[٢] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ و ج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيلا يضطرب فى غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد فى معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء فى ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه فى الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبى الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامرى ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرق الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم فى تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار فى جموعه أولا إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره فى أيدى البربر . وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادى آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشيا من غدره[1].

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ .

وسار خيران والمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار، وباؤا بالصغار» واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، فى بعض أصحابه إلى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث(١) .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرق الأندلس صوب قرطبة ، كان فى سنة ٤٠٩ هـ(٢) ، وأن الموقعة حدثت فى أواسط هذا العام ، وفى خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبما يجىء .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفى مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً(٣) .

ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المجتمعين يومئذ فى منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقالبة من موالى بنى أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو فى الحمام وقتلوه ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة فى الثامن من ذى القعدة ، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل فى سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحي بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر فى البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولا ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيي التجيبى ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس[1]. وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقى معتصما بألمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيي بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيي يحشد أنصاره تباعاً فى مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيي فى قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيي .

ودخل يحيي بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى ؛ وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أومدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضى ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر فى إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بإنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع فى الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور »[1] .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفى الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة فى الثامن عشر من ذى القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين ؛

ولكن القاسم لم يوفق فى سياسته أيضاً فى تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا فى معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة فى النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك فى كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر فى معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبناه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

---

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش(١).

وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى سبتة ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحتمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم فى فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم فى الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقى القاسم يرسف فى سجنه ردحاً طويلا من الزمن ، حتى قتل خنقاً فى سنة ٤٣١ هـ ، وهو فى نحو الثمانين من عمره(٢).

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى فى البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولها ، وبدئ بالفعل فى تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام فى كبكبة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة فى الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة(٣) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩ .

(٣) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد فى الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل=

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بنى أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار ، مثل أبى عامر بن شهيد ، وأبى محمد ابن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان «من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً فى العلوم الرفيعة» . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتى :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها ، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : «وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل ، ولاقبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صبابة ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه ، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته ، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرّى به فسُفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته»(١) .

تلك هى الصورة القوية التى يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسى المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله فى الثالث من ذى القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .

(١) نقله فى الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابنى عمه سليمان والعراقى ، وكانت هذه البوادر المكدرة تقضى على هيبته بسرعة، وتذكى السخط عليه فى صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر، فغضب لذلك الكبراء، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم ، إننا حاربنا البربر وقهرناهم، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة، وزحفت جموعهم على القصر، واقتحموه على غرة، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك، فاختبأ فى أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة[1] .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر : وكان مختفياً خشية البطش به، فأخذ إلى القصر، وأجلس فى مجلس الملك ، وبويع بالخلافة فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ؛ وتلقب بالمستكفى بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به فى أتون الحمام فى حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد، وأعدم أمامه، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً، لم يحدث فيها حدث هام، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة[2] .

ومن شعره من قصيدة طويلة قالها فى ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٣٨ و٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص١٤٨ و١٣٩ .
(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ — ٤٣ .

وإنى لطعان إذا الخيـــل أقبلت جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفى حين ينزل ساحتى وجاعل وفدى عند سائله وفرا

وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأى ، وقد شبهه ابن حزم ، فى سوء خلاله ، وفى مجونه وفسقه ، وفى خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفى العباسى ، وقد كان كلاهما فى نفس السن ؛ وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر(١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة ، أحداث ذات شأن ؛ وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفى أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ، وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال فى قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة الفاسدة ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا إليه التخلى ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة فى نفس اليوم متنكراً فى زى امرأة . وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦هـ (مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكفى صوب الثغر فى نفر من صحبه ؛ ووصل إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه(٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .
ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة « ولادة » التى اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتى أوحت إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيي بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصد إليها فى قواته ودخل القصر فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفبر سنة ١٠٢٥م) ، وبقى بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها فى أوائل المحرم سنة ٤١٧ﻫ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبى روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك فى العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ ﻫ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه فى سنة ٤٠٩ﻫ ، قد فر من قرطبة فى نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت فى شمال شرقى الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بحصن ألبونت ، فتلقاها فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ﻫ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقى بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ﻫ[1] فجددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه فى البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالى يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده فى الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

= المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبى الرفيع . وتوفيت فى سنة ٤٨٤ ﻫ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ – ٤٤٩) .

(١) جذوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس فى وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى ، من أحفاد الناصر، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفى ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه فى المدينة، وتركوا جثته فى العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية فى جموعه إلى القصر، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه، لما أبقوا على شىء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه، والتخلص جملة من بنى أمية، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفى بنى أمية وإجلائهم جميعاً عن المدينة، وكان رائد الجماعة وناصحهم فى ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده ، وسنرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور فى مصاير قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة، ثم غادره بعد أيام قلائل،وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى فى سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى فى سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية، ولا يأويهم أحد، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم. حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم[1] .

---

(١) راجع البيان المغرب ج٣ ص ١٤٥ — ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ — ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

* * *

و لنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بنى حمود فى جنوبى الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن على بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة فى سنة ٤١٤هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى فى أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل فى سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر فى الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفى فى سنة ٤١٦هـ. ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التى غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، فى أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالى كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالى إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى فى الخلافة أولا ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعمعة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد فى إشبيليـة (المحرم سنة ٤٢٧هـ — نوفمبر سنة ١٠٣٥م) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه[١] .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى ، وأبوجعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبتة . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واعترفت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشّانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرقى إشبيلية ، وأحرقوا طرّيانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت»[٢] . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضايق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Daifontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)(١) .

وكان القاضى ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل فى جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة فى شرقها . فاستغاث البرزالى بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)(٢) .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد فى قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته فى السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة فى مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبى جعفر ابن بقنّة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتى حدثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنّة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل فى ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبى ، وكان يومئذ بسبتة ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخى إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن فى أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويع حسن بن يحيي بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبى جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبى جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيي ، فدبر مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيي القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية(٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبتة إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيي ، فاسترابوا منه ومن مقاصده وائتمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيي أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الجند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مُقانا القبذاقى الأشبونى فى مدحه ومطلعها :

البرق لائح من أندرين ذرفت عينـاك بالماء المعين
لعبت أسـيافه عـارية كمخاريق بأيدى اللاعبين

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .

(٢) المراكشى ص ٣٧ .

واصوت الرعد زجر وحنين ... وبقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ... ويك لا أسمع قول العاذلين(١)

ومنها :

عيرتني بسقام وضنى ... إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين
إسقنيها مرة مشمولة ... لبثت في دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب ... يتهادون رياحين المجون(١)

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ، ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم . وكان ضعيف الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨ هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد »[١] .

واستمر محمد بن إدريس المهدى فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام. ولما لم يرخصومه وسيلة للتغلب عليه، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدوة ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى[٢] .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة ، فى كنف حاكمها أبى نور بن أبى قرة ، فلما هلك السامى، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧م) ، سار باديس فى قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم،واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، قد اجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

---

(١) ابن حزم فى رسالته « نقط العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفى يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدى فى مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار فى أنصاره إلى مالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى، ولكنه أخفق فى محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦هـ — ١٠٥٥م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ الى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح، ولبث بها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلى (٤٤٩هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بنى حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسبانى الجنوبى، وثغور العدوة الشمالية، زهاء نصف قرن[1].

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

(١) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشى ص ٣٧ — ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثا بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى سيكو دى لوثينا عن دولة بنى حمود عنوانه: **Los Hammudíes, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضى المثلث الإسبانى الجنوبى ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول «الطوائف» ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعانى من انقسام الكلمة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨هـ — ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

الكتاب الخامس

النظم الإداريّة والحركة الفكريّة
في عصري الإمارة والخلافة

الفصل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التى سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير فى مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التى شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجتمعة متماسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمى ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسى ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الاندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولانى ، وقد ندبه عمر بن عبدالعزيز لولايتها فى سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفى عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) عاد الأمر فى تعيين ولاة الأندلس إلى ولاة إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو فى الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعنى جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطرمت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبى والياً للأندلس (١٢٥ هـ) . ولكن أبا الخطار كان يمنياً فمال إلى اليمنية ، واضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك فى سنة ١٢٩هـ (٧٤٧م) .

واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، فى ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، وهرع فى الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم فى موقعة المسارة فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦م) فهزم يوسف الفهرى وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسليل بنى أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموى فى الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بنى أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية فى الأندلس ، وتستقر قواعدها تباعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشح بثوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ فى عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء ، وأضحى ينافس بلاط بنى العباس فى الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بنى أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير فى ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩م) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها « بأمير المؤمنين » .

وقد تميزت الخلافة الأمويه بعدة خصائص ، أولها الاعتماد فى توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهى سياسة بدأت فى عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها فى عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتقاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشىء منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه «بالقومس» ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أسقفهم فى نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه فى بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ — ٩٧٦م) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبى عامر ، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبى عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك، وتسمى بالحاجب المنصور (٣٧١هـ — ٩٨١م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشىء للخلافة الأموية أو رسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شبح باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور . ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بتميام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، وتربعه فى كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرمت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولا بين بنى أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبنى حمود ؛ وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافية ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنبات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة . يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ (٧١١م) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى.

— ٢ —

الحجابة والوزارة

كانت حكومة الأندلس فى عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش . ولم تلك ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى فى معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا فى بداية عصر الإمارة مذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه فى القيام بأعباء الحكم ، ويبذلون له النصح فى مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه فى مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاستراية بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاستراية بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء فى عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطع مظاهرها فى عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة فى البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابة والوزارات القوية . فكان منصب الحجابة فى الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه فى معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبى عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة ، عدة من الوزراء ، يتولون مختلف المناصف الوزارية . وقد بلغت الوزارة فى ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً ، وتعاقب فى ولايتها جمهرة من أعظم الرجال ، وألمعهم خلالا ، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة ، مثل منصب كبير الخاص. وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة . وخطة الخيل . وخطة الكتابة أو الكتابة العليا ، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابهين . وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة ، وصاحب المدينة بالزهراء ، وكانتا من أهم المناصب الوزارية . وخطة المظالم ، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم ، ولكنها فى عهد الناصر ، قسمت إلى خطتين (٣٢٥هـ) ، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها ، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قاسم بن طملس ، وكان يتولى المظالم وزير ، وقد وليها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء النابهين مثل أحمد بن حدير . وعبد الملك بن جهور . وخطة الشئون المالية . وخطة الشرطة ، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن ، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ فى عهد الناصر لدين الله ، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى ؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى ، وسطاً بين رزقى العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير . وخطة القضاء ، وتتبعها خطة المواريث ، وكذلك خطة السوق أو الحسبة . وخطة الشورى ، وكانت من الخطط العارضة ، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء ، وتسند عادة إلى من يعتبر فى وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من وليها رجال مثل بقى بن مخلد . وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته . وفى أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة فى تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة ، وبدأ ذلك بنوع خاص فى عهد عبد الملك المنصور . ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً ، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الأخيرين من بنى أمية ، وغلبوهم على أمرهم ؛ ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، رياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامرى صاحب دانية ، وخيران العامرى صاحب ألمرية .
وظهرت فى الدولة العامرية بدعة أخرى ، هى إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال. فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد ، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد فى منصب الحجابة ، ولقب بذى الوزارتين ، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز فى منصب الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلا على تصدع ذلك الصرح الإدارى المحكم الذى شاده الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفى أيام الخليفة المستظهر العابرة (رمضان — ذو القعدة ٤١٤هـ) استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالى ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهى خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

— ٣ —

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامى عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس ، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد ، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية فى تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة فى جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقى جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذى اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس ، وكان أعظم هذه

الجيوش ، الجيش الضخم الذى حشده عبدالرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ — ٧٣٢ م) من تخاذل البربر وتخلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المنهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية تضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزقة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفتك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠هـ (٨٤٣م) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسى ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التى شملت سائر نواحى الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨–٢٧٣هـ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة فى معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى فى أواخر هذه الحقبة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومده بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى فى الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسى ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسى فى عهد الناصر ، حسبما تقدم ، زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسى يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفى عهد المنصور بن أبى عامر ، بلغ الجيش الأندلسى المرابط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص فى تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدوة ، وبذل لهم الأعطية السخية ، وكذلك حشد فى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس فى أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسى المرابط فى عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجالة (المشاة) فى الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

— ٤ —

الموارد الاقتصادية

وصنوف الجـباية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسبانى المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شىء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شىء . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى . ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، فى الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج فى الشمال ، وفى جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونبة من ولاية الغرب ، وكان البللور يستخرج فى منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباغة ومن جبال سيرّا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق[1] ، وكانت التجارة تزدهر فى نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانيها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجبى الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة .

ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فى عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومى ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، وبلغت فى عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص (وهى الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، فى موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة فى مختلف الغزوات ، وفى مختلف المنشآت الباذخة التى أقامها ، وفى مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهى مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس فى عصر الخلافة .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، فى أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) ، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبى والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة فى عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامرية ، وانهيار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة فى كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ ليڤى بروڤنسال L'Espagne Musulmane aux xème Siècle; p. 176, 183 & 184 ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

لبثت الأندلس عقب الفتح ، ردحاً من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية فى الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فإنا لا نجد فى هذا العصر كتّاباً أو شعراء أو مفكرين ذوى خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التى ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت فى عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه ، ما يدل على براعته وتفوقه فى هذا الميدان .

ومن بين أمراء بنى أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل فى الحديث والفقه ، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً فى الحديث والفقه . وفى عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى فى ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة فى البداية ، الطابع الدينى قبل كل شىء ، وكان قد رحل فى عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه (الموطأ) ، وكان فى مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون ، مثل زياد بن عبد الرحمن ،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثى ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس فى وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفى فى سنة ٢٠٤ هـ(١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا فى وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة فى ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمّنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفى سنة ٢١٢ هـ(٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثى فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها مركز الصدارة ، وكان ذهناً حراً يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاء ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفى فى سنة ٢٣٤ هـ(٣). وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوع المذهب ، وفى تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء فى شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق فى تحريك القوى المعارضة ، التى انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، فى سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسبما أوضحنا فى موضعه .

وفى عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوالع النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان فى مقدمة من ظهروا فى تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً فى النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً فى عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات فى الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب فى « فضائل الصحابة » ، وكتاب فى « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

---

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضى (مصر) رقم ٥٨٤ .

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

(٣) جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين » و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيهها . وتوفى عبد الملك بن حبيب فى سنة ٢٣٨ هـ(١) .

وفى عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التى غلب عليها الطابع الدينى ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتّاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه فى مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الجزيرى المصمودى ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعى وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً فى اللغة وشاعراً جزلا ، يسلك فى شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه(٢) . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً(٣) ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمتك ما عدا نظراً مضراً ... بقلب بين أضلاعى مقيم
فعينى منك فى جنات عدن ... مخلدة وقلبى فى الجحيم(٤)

وبلغ الشعر فى عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيى الغزال الجيّانى . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلا بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما فى هذا الميدان .

---

(١) راجع ابن الفرضى ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٨٨١ .

(٣) ابن الفرضى رقم ٨٨١ .

(٤) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشنى (مصر) ص ١٠٣ و ١٠٥ .

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها، ففى ميدان الكتابة احتشد فى بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين، وفى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ومحمد ابن سليمان الزجّالى، وفى ميدان العلوم الدينية ظهر فى عهد عبد الرحمن، جمهرة من أكابر الفقهاء، مثل محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث، وعبد الأعلى بن وهب، وبقىّ بن مخلد، ومحمد بن وضاح، وغيرهم، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد، وهو من أهل قرطبة، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية، وبرع فى الحديث والرواية، ويمكننا أن نعتبره رائد علم الحديث فى الأندلس. وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن. وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه، وإلزامهم الحجة، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس. ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية. وله تفسير للقرآن ومسند للنبى، وينوه العلامة ابن حزم فى رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف فى الإسلام مثله[1]. وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس، وكان ورعاً زاهداً، وتوفى سنة ٢٧٦ هـ[2].

وكان من أعلام الفقهاء فى هذا العصر، محمد بن عبد السلام الخشنى وهو من أهل قرطبة، ورحل إلى المشرق وسمع، فى البصرة وبغداد ومصر، وكان فصيحاً جزل البيان، بارعاً فى اللغة، ورواية الحديث، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان، وقد رفض أن يتولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فى سنة ٢٨٦ هـ[3].

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره. وكان من ألمع شعراء عصره، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير، وهو من أهل وشقة، وكان

---

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١.

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٢٨٣.

(٣) ترجمته فى ابن الفرضى رقم ١١٣٤. وهو غير محمد بن حارث الخشنى صاحب «قضاة قرطبة» المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره(١).

وكان من أبرز الظواهر الأدبية فى هذا العصر، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة فى كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين فى هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ — ٢٧٣ هـ) وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) عاملا هاماً فى اضطرام النهضة الأدبية، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس، وقد أوردنا قصيدته فى موقعة طليطلة ، التى سحق فيها الثوار . وفى أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذى يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسى . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره فى موقعة إستجة التى سحق فيها الثائر عمر بن حفصون ، وذلك فى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدائحه للأمير عبد الله، ثم حفيده عبدالرحمن الناصر ، وقد كان معلمه فى صباه، وبأرجوزته فى غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب فى الأدب العربى ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقى ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسى فى مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه »(٢) ويعتبر العقدالفريد بطابعه المشرقى ، على النقيض من كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى ، المتوفى سنة٥٤٢هـ ، والذى يعتبر بمحتوياته وروحه ، مثلا ساطعاً للأدب الأندلسى .

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٩١ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوّار بن حمدون القيسى ، وسعيد ابن سليمان بن جودى ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم فى وقته، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما(١) .

وكان من أعلام الأدب فى تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمدانى ، وهو من زعماء العرب بكورة إلبيرة . وكان بارعاً فى الأدب، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدى الأمراء فى المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحى(٢).

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً فى العربية ، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ،وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لُبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً فى الفقه ، متمكناً من حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد فى الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد ولِّى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى فى سنة ٣١٤ھ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب فى روايات مذهب مالك(٣).

وقد حدثنا ابن حيان فى المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمديحه ، فقال: إن « فى مقدمتهم معلمه فى الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وإسمعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

(١) راجع الحلة السيراء (طبعة دوزى) ص ٨٠ – ٨٧ .
(٢) الحلة السيراء ص ٩٨ .
(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطارئين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادى ، ومحمد بن حسين الطبنى الإفريقى ، وغيرهما ، أسافوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقايهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام ... لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى ... كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده ... لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائبا ... فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ... ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره ... فى شيعة الإشراك والإحرام

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طليطلة ، وارتياع الخلالقة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقدما أتت ... لك فتوح الثغر فذاً وتوءما
تباشير تترى من فتوح تواتـ ... ـرت كما تابع النثر الجمان المنظما

ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكم بن الناصر لدين الله، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمه وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك ... وفى أيمن الساعات كان احتلالكا
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً ... وقد صال بالمخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميتة ... أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأقفلت عنهم والمنايا صوايب ... تسيل بها فى ساحتيهم سجالكا
إذا ماالقرى رام اغتلاق جفونهم ... فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا للسير فى الأرض مذهبا ... تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا ... أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين ممـلكاً ... فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسمعيل بن بدر فى مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :

تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيرا   مشمراً فى رضى الرحمن شميرا
بدر الملوك الذى إشراق سنته   تجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا
من قد قضى الله فى ماضى شبيبته   لا يزال على الأعداء منصورا

قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه، كثير جداً ، محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه، وابن إدريس، ومهند والطبنى ونمطهم... فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم، والإحسان إليهم ، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بلدته ، عفى رسومها، وغيض معينها من الليالى وانصرام الدولة، وتسلط الفتن البربرية، والمطاولة على التواريخ الملوكية، التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال، فهل من باقية »(١) .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه، عدة من أكابر الكتاب والأدباء، مثل الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلا عن كونه من بيت رياسة وجلالة(٢) وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً جليلا ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبـدان نائمـة   فنفوس أهل الظرف تأتلف
يارب مفترقـين قد جمعت   قلبيهما الأقـلام والصحف(٣)

وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ — ٣٥٥هـ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته وجزالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ، وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته «كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحات ٢٧ و ٣١ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ .

برع ابن مسرة فى العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، فى التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فاراً إلى المشرق وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمى بالجبلى . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ . وقد اختلف فى أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفى ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١م)[١] . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم فى ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً فى سنة ٣٤٠هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد فى المقتبس[٢] ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر فى شأنها .

وفى عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الإشبيلى ، وقد ولد بإشبيلية فى سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثته ببراعة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانىء للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه فى سنة ٣٦٢ هـ . وقد شُبه ابن هانىء بالمتنبى فى رصانة شعره ، وروعة افتنانه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التى يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر ، بقيادة جوهر الصقلى ، والتى يقول فيها :

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٥٢ .

(٢) وذلك فى النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكى بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه فى آخر الكتاب .

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المال حيث محله وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع
فإن يك فى مصر ظمأ لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغار بنعمة فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

وكان من أعلام الشعر فى عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفى، الذى تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفى فى سنة ٣٧٢هـ فى سجن الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبى عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره فيما تقدم فى غير موطن.

وظهر فى عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، فى مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجّالى، وهو الذى أنشأ عن لسانه البيان الخاص بمروق ابن مسرة الذى سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء. وكان فى مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا فى موضعه.

وظهر فى عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، وقد ولد الرازى سنة ٢٧٤ هـ وتوفى سنة ٣٤٤هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس»، وكتاب فى «صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازى مستقى خصباً لمؤرخى الأندلس، وفى مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية إبنة وتنزا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » .

وكان فوق ذلك من أئمة عصره فى اللغة والنحو ، وله فى ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين فى ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التى ازدهرت فى عصر الناصر ، وفى عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الأستاتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التى بذل الحكم فى إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده فى ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكابر العلماء ، فى مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشى ، وأبو على القالى ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجارى ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكى النصرانى ، وغيرهم .

وظهر فى تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان فى مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادى ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبى عامر بعد ذلك ، وحظى لديه ، وقد اتهم بالغلو فى بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

متى أشكر النُّعمى التى هى جنتى ... فنى ظلها أمسى وفى ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة ... شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينى ... وأرضى لا تصدى وأفقك لا يضحى(١)

ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتمس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين، كان متصرفاً فى القول، متقناً لأساليب الجد والهزل، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم، وله شعر كثير، ومن شعره فى تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابنى حمدون، وتقديم طاعتهم إليه، قصيدة طويلة، هذا مطلعها :

بأيمن إقبـــال وأســـعد طائر ... تباشـــير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معـــد مقوض ... للملك إلى مهدى مروان راجـــع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت ... بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع

ومن قوله فى الغـــزل :

فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى ... لعلى إذا ما نمت ألقى خيـــالها
يقولون لى صبراً على مطل وعدها ... وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهودها ... وطى هواها واحتمالى دلالها(١)

ومنهم محمد بن الحسين التميمى الطبنى، أصله من طبنة، بلد بأرض الزاب بالمغرب، وكان شاعراً محسناً، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة، وكان من شعراء الحكم الأثيرين. ومن شعره يهنىء الحكم بحلول عيد الأضحى :

نحلت بجوهر لفظها أن يلقطا ... لما رأته من الجـــواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهـــدى ... نوراً على غسق الظـــلام مسلطا
صل عيدك البهيج السنا فى غبطة ... وازدد من الأعياد ألفا مغبـــطا(٢)

ومنهم يحيى بن هذيل، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهـــم ... غيم حكى غبش الظلام المقبـــل
وعلت مطارفهم مجاجات الندى ... فكأنما مطرت بدر مرســـل
لما تحركت الحمول تناثرت من ... فوقهم فى الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها ... لكنها اختلطت بشكل مشكل(٣)

ومنهم، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبى المعروف بأبى جنيش، كان من أشهر شعراء الأندلس فى وقته، واشتهر بالأخص بشعره

---

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤. وبغية الملتمس رقم ٢٧٦، والمقتبس، قطعة أكاديمية التاريخ ص ٥٤ و ٦٠.

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨، والمقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤.

(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧، وبغية الملتمس رقم ١٤٩٤.

الهجائى ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه فى فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف فى حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تنكروا غرر الدموع فكل ما ... ينحل من جسمى يصير دموعا
والعبد قد يعصى وأحلف، أننى ... ما كنت إلا سامعاً ومطيعـا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً ... يمنن على برده مصدوعا(١)

ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .(٢)

وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق. وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه.

ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصاير الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلاله العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير . وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادى المتوفى سنة ٤١٧ هـ ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، فى أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة[١] .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه كل حاكم مطلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه فى عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعى فيما بعد فى عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره فى موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن درّاج القسطلى . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً فى نفس الوقت . وقد نبغ فى ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم . ولما توفى المنصور فى سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج فى أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامرى صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحبا بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم فى حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفى ابن دراج فى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)[٢] .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ فى عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة فى مختلف العلوم ، وتقدم فى

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مصر) رقم ٥٤٠ .

(٢) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جمّاعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، مقروناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله فى الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً فى أحكامه بالنزاهة والصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب فى فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفى ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية فى سنة ٤٠٢ هـ (١).

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطرمت الفتنة بالأندلس ، انكمشت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك فى غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التى يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى فى ظل الخلافة الحمودية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مالقة أديباً ينتظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

البرق لائح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، فى عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره فى هذا الفصل .

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢ .

الوثائق والملحقات

وثائق تاريخيـــة

— ١ —

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشـــأن حـــركة ابن مسرة

(منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و ١٤ و ١٥) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلا قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلايق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلىّ خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرّفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على ساير الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فلله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصايص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير.. وإعلاما لهم... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه... وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية » . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على ساير البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ،السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آرائهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح فى الحديث ، وترك نجح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما ... وورطهم ، ورأوا لتخضع وحشة بحثها الازم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ فى دين ، ولا رسوخ فى علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أوردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشذوا ... وكشفوا بتكررهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفة ، واعتقاداً لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمها ، وسبى ذراريها ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشيا ، وجهلهم شايعا ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، فأشغل نفسه ، وأقض مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم ، وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيعاً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ، نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر الحاير ، وينقض عزم العائد المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ، التى يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سرايرهم فيكون عليهم شهيداً ، ويأتهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ويرسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى ساير قواده ، وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبديل للسنة ، والاعتداء فى القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك فى قبلك ، ونشره فى سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطايفة بجميع أعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ، لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفى حنين صدره ، وإياك أن تهون من أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ، واعتمد به إنشاء الله تعالى » .

— ٢ —

كتاب الخليفة الناصر لدين الله
عن غــزوة الخنـــدق

(منقول من السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذى رفع فيه خبر هذه الوقعة ، وقع كما أثبته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته فى النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إليها استركن عدو الله ، وضاقت الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلفائه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون ، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع فى مجنبتى العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتايب تملأ الفضا ، ومغانب تضيق عنها الشعاب ، ويصير فى سهل الأرض كالآكام ، تتألق عليهم سوابغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشراقين ، ينظرون إلى كتايب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشررقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراءه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعتهم الأثقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقايهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يمتعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا فى حومة المنايا ، كرّ من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبى ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردوؤهم التى كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ، ما غيب من كان فى القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم فى وقدتها حاثاً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار فى أيدى الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لمحلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى فى حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان فى اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا فى نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكثف الردوء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه حملة الخيل عدة ، فإذا رأى فى جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدى المسلمين فى المقاطع عالية ، فتلظت الحرب واحتدمت ، وكأن المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخيل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة فى المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلى منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضارة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلهم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، فى ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصابحة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصاير والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يطأ بلادهم وطأة متثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التى اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع فى جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهى خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يرى التقدم على نهر دويرة إلى شنت إشتبين وغرماج لنقص الزروع المديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبينه ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤيد على حصونهم وعماراتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال فى بلد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبينه ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار فى آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين فى منصرفهم بزاح ظهرهم ، وأحوط عليهم فى

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشترب ، وأيأسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لامه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شَعْراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها المخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراء الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولاكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال ، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله فى التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة ليشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذى عمهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخه إلى عمال الكور حولك إنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث ماية » .

ثبت المراجـــع

١ ـ مراجع أندلسية وإسلامية عامة

تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .

تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .

تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .

تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .

فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .

مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .

نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً) .

وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .

كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى (القاهرة ١٩٤٧) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول (ملدريد ١٨٦٧) .

تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزى (ليدن ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى (ضمن المكتبة الأندلسية) .

كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)

قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربيرا (مدريد ١٩١٤) .

المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملشور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزى) ؛
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ) ؛
جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .
العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى (طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة) .
المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى (المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية) .
أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .
رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .
نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذرى (منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى — مدريد سنة ١٩٦٥) ؛
طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ) .
الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .
مختصر نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ١٥٩٢) .
وصف الأندلس للإدريسى (المطبوع بعناية المستشرق ساڤدرا) .
المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

مصـــادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق مخطوطة من « السفر الأول» تشمل حوادث سنة ١٨٠ —٢٣١ﻫ ، عثر بها المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثانى » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ ﻫ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠— ٣٦٤ﻫ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥) بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩ﻫ ويحمل رقم 87.

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم١٧٣١ الغزيرى) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميجل آسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢ — المراجع الأوربية

رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهي :

España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)

وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :

Isidorus Pacensis Crónicon رواية إيزيدور الباجى

Chrónicon Compostellanum رواية كومبستيلا (اشلت ياقب)

Annales Toledanes الأخبار الطليطلية

Chronicon Lusitanum الرواية اللوستيانية البرتغالية

Chronicon Adefonsi الرواية الأدفونشية

Rodericus Toletanus : Historia Arabum.

رواية ردريك الطليطلى (تاريخ العرب)

Lucas Tudensis : Chronicon Mundi. رواية لوقا التطيلى (تاريخ العرب)

Crónica General de España- (Ed. Pidal) تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).

Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.

F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).

Julian Ribera : Disertaciónes y Opúsculos (Madrid 1928).

R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).

R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).

„ „ „ : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).

„ „ „ : Origenes del Espanol.

„ „ „ : Historia y Epopya.

Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).

F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).

F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).

A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras, (Málaga 1955).
Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.
Camille Julian : Histoire de la Gaule.
Dom Vissette : Histoire de Languedoc.
Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,
Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).
Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed).
Zeller : Histoire de l'Allemagne.
Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
Schlegel : Philosophie der Geschichte.
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
Lane-Poole : The Moors in Spain.
Scott : Moorish Empire in Europe.
H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.
Creasy : Decisive Battles of the World.
Finlay : Byzantine Empire.
Hodgkin : Charles the Great.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
Encyclopédie de l'Islam.
Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.
Bouquet : Receuil des Historiens de la Gaule et de la France.

فهرست الوثائق التاريخية

للقسمين الأول والثانى

صفحة

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية
ومقابلها الإفرنجي

أكوتين	Aquitaine
بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى	Aragon
أسترقة	Astorga
أشتوريش	Asturias
ابن باجة	Avenpace
صخرة أبنيون	Avignon
آبلة	Avila
بطليوس	Badajoz
بياسة	Baeza
الجزائر الشرقية	Baleares
برشلونة — برشنونة	Barcelona
باجة	Beja
بربشتر	Berbastro
برمند	Bermudo
بسكونية — بسكونس	Bicsay – Viscaya
ببشتر	Bobastro
برغش	Burgos
قبرة	Cabra
قلهرّة	Calahorra
قلعة أيوب	Calatayud
	Calatrava
ألبة	Alava
ألبة والقلاع	Àlava et Castella Vetula
البسيط	Albacete
شنتمرية الشرق	Albarracin
شنتمرية ابن رزين	
قصر أبي دانس	Alcacer do Sal
قلعة النهر	Alcalá de Henares
القنطرة	Alcántra
القصر	Alcázar
أدفنش بن رمند	Alfonso Raimundez
كورة الغرب	Algarve
الجزيرة الخضراء	Algeciras
لقنت	Alicante
ألمرية	Almeria
المدوّر	Almodavar
حصن المدور	Almodavar del Rio
المرابطون	Almoravides
المنكّب	Almunecar
أدفنش ، أذفنش ، ألفنش	Alphonso - Alfonso
البشرّات البشرة	Alpujurras Alpuxarras

Calatanazor	قلعة النسور
Carcassone	قرقشونة
Carmona	قرمونة
Carthage	قرطاجنة القديمة
Cartagena	قرطاجنة الأندلس
Castellon	قسطلونة
Castile— Castilla	قشتالة
Catalonia Cataluna	قطلونية
Cardegna— Cerdana	شرطانيه
Ceuta	سبتة
Charlemagne Karl— Charles	قارله — شارلمان
Cintra	شنترة
Coimbra	قُلُمرية — قلنبرية
Cordova Córdoba	قرطبة
Coria	قورية
Corsica	قورسقة
Cuenca	قونقة — كونكة
Daroca	دروقة
Denia	دانية
Duero·Douro	نهر دويرة
Ebro	نهر إبره
Ecija	إستجة
Elvira	إلبيرة
Evora	يابرة — يافورة
Favila	فافلــة
Fernando - Ferdinand	فرذلند
Fernan Gonzales	فرنان غنصالص
Froila	فرويلة
La Frontera	ألفرنتيره
Galicia	جلّيقية
Garcia	غرسية
Gaule	غاليس
Gerona	جيرندة
Gibraltar	جبل طارق — جبل الفتح
Goths- Godos	القوط — الغوط
Granada	غرناطة
Gregorius	جرجير
Guadalajara	وادى الحجارة
Guadalete	وادى لكّه
Guadalquivir	الوادى الكبير — النهر الأعظم
Guadarrama	وادى الرملة
Guadiana	وادى يانة — وداى أنة
Guadix	وادى آش
Huesca	وشقة
Ivica-Ibiza	جزيرة يابسة
Jaca	جاقة
Jaen	جيّان
Jódar	شوذر
Lamigo	لميقة
Lausitania	البرتغال القديمة
León	ليون (جليقية)

Lerida	لاردة
Lisbon-Lisboa	أشبونة ـ لشبونة
Lombardy	بلاد اللنبرد ـ أنكبردية
Lopez	لب
Lorca	اورقة
Lugo	لُك
Lyon	اوذون ـ لوطون
Madelin	حصن مادلين
Magerit	مجريط
Majorca-Mallorca	جزيرة ميورقة
Málaga	مالقة
Martos	مرتش
Mauretania	المغرب الأقصى
Medinaceli	مدينة سالم
Medina-Sidonia	شذونة
Mérida	ماردة
Mertola	مارتلة ـ ميرتلة
Minorca	جزيرة منورقة
Monzon	منتشون
Montimayor	منتميور
Montileon	منتلون
Morón	مورور
Mozárabes	المستعربون أو النصارى المعاهدون
Mula	مولة
Murcia	مرسية
Narbonne	أربونة
Navarra	بلاد البشكنس ـ نبرة
Niebla	لبلة
Normans	الأردمانيون ـ المجوس
Ocsonoba	أكشونبة
Orelius	أورالى
Oria	أوْرية
Orihuela	أوريوله
Pallares	بليارش
Pamplona	بنبلونة
Pedro	بِطْرُه
Pelagius-Pelayo	بلاى ـ بلايو
Priego	باغة
Pyrenees Pirineos	جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Poley	بلاى ـ بلى
Rejio	ريُّه (كورة)
Ramiro	ردمير ـ رذمير
Ramon Berenguer	رمند
Rhône	نهر (وادى) رذونة
Roderic	لذريق ـ رذريق
Roncesvalles	باب شزروا ـ باب الشزرى
Ronda	رندة
Rueda	حصن روطة
Salmanca	شلمنقة
Sancho	شانجُه
San Esteban	شنت إشتيبن
Santa Maria de Algarve	شنتمرية الغرب

Santarein-Santarem	شنترين	Toulouse	تولوشة
Santaver	شنت برية	Trujillo	ترجالُه
Santiago	شنت ياقب	Tudela	تُطيلة
Saragossa-Zaragoza	سرقسطة	Tudmir	تدمير
Sardegna	جزيرة سردانية	Ubeda	أبّدة
Sicilia	صقلية	Urgel	أرقلة
Ségovia	شقوبية	Vacasorra	بقسرّة
Seville-Sevilla	إشبيلية	Valencia	بلنسية
Sierra de Almaden	جبال البرانس	Valtierra	بلتيرة
Sierra Morena	جبل الشارّات	Valladolid	بلد الوليد
Sierra Nevada	جبل شلير—جبل الثلج	Viguera	بقيرة
Tagus-Tajo	نهر التاجه أو التاجو	Villanueva	بلّة نوبه
Tanger — Tangier	طنجة	Viseu	بازو
Tarifa	جزيرة طريف — طريف	Xativa-Jativa	شاطبة
Tarragona	طرّكونة	Xenil-Genil	نهر شنيل
Toledo	طليطلة	Xeres-Jerez	شريش
Torrox	طرّش	Xecunda	شقندة
Tortosa	طرطوشة	Zamora	سمّورة

فهرست الموضوعات

(للقسم الثانى من الكتاب)

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثالث ــ عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الرابع ــ ربيع الخلافة الأندلسية

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

صفحة

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بنى حمّود

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية
فى عصرى الإمارة والخلافة

وثائق تاريخية

فهرست الخرائط

فهرست الكتب

فهرست القبائل والطوائف والدول

ج — ز

س — غ

ف — ق — ك

فهرست البلدان والأماكن

— ا —

ج — خ

د — ز

س — غ

ف — ك — ق

ل — ى

فهرست الأعلام

ب — ت — ث

ج — ح — خ

د — ز

س — ط

ع — غ

ف — ق — ك

ل — م

ن — ى

موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هى الآتية :

دولة الإسلام فى الأندلس المجلدان الأول والثانى (الطبعة الرابعة)

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (مجلدان)

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (الطبعة الثالثة)

الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى